



الخُمينيّ

في رسائلِ الإصلاحِ والتّغيير

مُحمّد صادق الحسيني


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع ايمان ابي طالب في كفة ميزان وايمان هذا الخلق
في الكفة الاخرى لرجح ايمانه.
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

محمّد صادق الحسيني

كاتب ومحلّل متخصّص في القضايا والشؤون الإيرانية، ناشط في العمل السياسي والثقافي، له مشاركات عدة في مؤتمرات في مختلف أنحاء العالم الإسلامي. ينشر في عدد من الصحف العربية والعالمية. له كتب عدة منها:

- إيران: سباق الإصلاح من الرئاسة إلى البرلمان
- الخاتمية: المصالحة بين الدين والحرية
- هويّات حائرة في عالمٍ مضطرب
- الشيخ الرئيس: من قرية الياقوت الأحمر إلى عرش الزعامة الذهبيّ.

الخُمينيّ

في رسائلِ التغييرِ والإصلاحِ

محمّد صادق الحسينيّ

الخُمَيْنِيّ

فيْ رسائلِ التغييرِ والإصلاحِ



المؤلف: محمد صادق الحسيني
الكتاب: الخميني في رسائل التغيير والإصلاح
المراجعة والتقويم: فريق مركز الحضارة
الإخراج: محمد حمدان
تصميم الغلاف: حسين موسى

الطبعة الأولى: بيروت، 2009
ISBN: 978 - 9953 - 538 - 20 - 4

khomeini
in The Letters of reformation and changing

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن قناعات واتجاهات مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي»



مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي

Center of civilization
for the development of islamic thought

بناية الصبّاح - شارع السفارات - بئر حسن - بيروت
هاتف: 826233 (9611) - فاكس: 820387 (9611)
Info@hadaraweb.com
www.hadaraweb.com

الفهرس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كلمة المركز

إذا كانت الأحداث الجليلة تقسِم التاريخ إلى ما قبل وما بعد، فإنّه يمكن تقسيم التاريخ الإسلاميّ المعاصر إلى ما قبل الخمينيّ وما بعد الخمينيّ. وليس في هذا الكلام مجانبةٌ للموضوعيّة، أو ميلٌ إلى المبالغة والتمجيد. فقد ظهر الخمينيّ إلى ساحة العمل الإسلاميّ في وقت كان الدين والمتديّنون يصارعون لتبرير الوجود، بعد أن ضاق الخناق على الدين إلى أضيق الحدود. فكان الدين أفيون الشعوب، وتحوّل النموذج الغربيّ والشرقيّ، في العالم الإسلاميّ، إلى نموذجين يبهران العقل الإسلاميّ قبل العاطفة.

وقبل الخمينيّ وُلِدت محاولاتٌ جادّة على المستوى النظريّ تدّعي قدرةَ الإسلام، على التحوّل من جديدٍ إلى محرّكٍ دافعٍ للنهوض الاجتماعيّ الإسلاميّ من الكبوة الحضاريّة التي أصابته وقتذاك وما قبله؛ ولكن هيهات أن يكفيَ التنظير مهما كان مسلّحاً بالأدلّة الدامغة، لمواجهة التجارب المشهودة بالعين وسائر الحواس.

فأتى الخمينيّ ليثبت بأقلّ مقدار من التنظير، أنّ الإسلام ما زال قوة دافعة في أمّة حيّة، ولو أنّها نائمةٌ. ويلفت أنّه اكتفى بالحدّ الأدنى من التنظير في مرحلة الثورة، على خلاف سائر الحركات الثوريّة التي يغرق بعضها في التنظير، والعمل الفكريّ ويعلق فيهما،

حتّى يتحوّل المجتمع إلى حوزة علميّة أو جامعة، وإلى عقل لا يد له ولا رجل يتحرّك بها أو يفعل ما يخدم منجزات العقل الذي نما وتطوّر بل ربما تضخّم، على حدّ تقييم أحد نقّاد العمل الحركيّ الإسلاميّ.

وأمّا الخمينيّ فإنّه همَّ بالعمل وأجَّل غير الضروريّ من النظر والتنظير إلى ما بعد النجاح الأوّليّ للتجربة التي قد تكشف عن الحاجة إلى نمطٍ مختلفٍ من النتائج والمواقف. وبالتالي تصدق على العلاقة بين التنظير والتجربة العمليّة مقولةُ: «**روما من فوق الشجرة وروما من تحتها**».

وهذا الكتاب الذي يقدّمه مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، يمثّل محاولةً لاكتشافِ المنهج الذي عمل الخمينيّ بعد نجاح التجربة على أساسه، وذلك من خلال تحليل عددٍ من رسائله وبياناته التي صدرت عنه في مناسبات وظروف عدّة؛ ولكنّها على تعدّدها تشير بشكلٍ واضحٍ إلى منهجِ الإمام الخمينيّ، وطريقته في العمل الاجتماعيّ والسياسيّ. يأمل المركز أن يكون في هذا الكتاب إضافة تعريفيّة إلى ما كُتِب عن الرجل وعن تجربتِه الفريدة.

مركز الحضارة لتنمية
الفكر الإسلاميّ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

في العشرين من جمادي الثاني من العام 1320 للهجرة القمرية المصادف 21 أيلول (سبتمبر) من العام 1902 للميلاد، أي مع بزوغ فجر قرن ميلادي جديد وهو القرن العشرين، كان العالم وكانت إيران على موعد مع رجل سيكون له في المستقبل شأن كبير ومثير للجدل بامتياز!

رجل يتحرّك خارج السياق التقليدي المعروف سلفاً للرجال من مثله، أو بعبارة أخرى رجل سيكون نطقه وحديثه كما هو عمله وسلوكه خارج المألوف مما اعتاد عليه الناس من رجال الدين تماماً، ولذلك سيُحدث تلك الهزة وذلك الزلزال الذي لطالما انتظره المنتظرون والثائرون والمتمرّدون على الظلم والطغيان، وتخوّف منه الانهزاميّون والخاملون والمتحجّرون!

إنه ميلاد ذلك الرجل الذي سرعان ما كُلّل بالعزّ والغار والفِخَار، والذي شغل العالم وأشغله في شيخوخته وهو لا يملك من ثروة الدنيا سوى قوت يومه وسجادة التعبّد والعرفان والعمل

الصالح، لكنه كان بالمقابل ملك النطق والكلام بما لم يكن مألوفاً أن يُسمع من العلماء أو مراجع الدين العليا!

إنه روح الله الموسوي الخميني الذي دخل ما بعد في سجلّ العظماء وصُنّاع التاريخ من أوسع الأبواب، وترك تراثاً غنياً وثرياً في مجال صناعة الأجيال وتغيير مسارات أمم وشعوب عدة، مُحدثا في الوقت نفسه نهضة فكريّة وحضاريّة ستظلّ أصداؤها وتداعياتها تجول في الزمان والمكان!

لمثل هذا الرجل الذي عايشتُ عصره من النجف الأشرف إلى ضاحية «نوفل شاتو» الباريسية التي دخلت التاريخ بفضله، وإلى قم المقدّسة التي ازدادت تقدّساً بأنفاسه، فطهران العزيزة التي ازدانت بالعزّ والاحترام بسعيه وعزيمته، قرّرت أن أكتب بعض كلمات الوفاء التي أعلم أنها لن تفيه حقّه كما يجب، لكن ما يواسيني في ذلك هو أن الرجل رحل من هذه الدنيا راضياً مرضيّاً إلى ربه ولم يكن يوماً، ولا هو الآن، بحاجة إلى أمثالي ليوفوه حقه، فتحيّة خالصة إلى تلامذته المخلصين السائرين على دربه من سلسلة جبال الاطلس الشامخة إلى سور الصين العظيم، مروراً بكلّ جهات الكون الأربع، وإليهم أهدي هذا الجهد المتواضع.

توطئة

لقد كُتب الكثير الكثير عن الإمام الخميني هذا الرجل الاستثنائي الكبير، وتحدّثت الوقائع والأحداث عنه كثيراً أيضاً، واتّفق معه من اتفق واختلف معه من اختلف، لكن لا أحد استطاع أن يُنكر دوره الاستثنائي ومساهماته الفارقة في رسم مسار الكثير من الملفّات الباردة والساخنة، وهو ما نتركه للتاريخ الذي لاشك في أنه سينُصفه ويُعطيه حقه كما هو في الواقع من دون منّة من كاتب مثلي مجروحة شهادته، ومن دون تدخل من آخر قد يدفعه عمى الألوان أو حقد دفين هنا، أو ضيق أُفق هناك، ليحاول عبثاً الانتقاص من هذا الرجل المثير للجدل وللحراك في الفكر كما للغليان في الأفئدة والنفوس، وهو ما ينفع في دينامية مطلوبة في مسار البحث الطويل عن الحقيقة والمحفوف بطريق ذات الشوكة!

ولا أخفي أنني كنت ولا أزال أهاب الكتابة عنه، على الرغم من أنني زعمت دوماً ولا أزال أنني جَسُور على الأحداث والوقائع وفي تناول سيرة الرجال، لكن الغوص في غمار الخميني والخمينيّة أمر آخر، وكما يقول العارف الكبير محي الدين بن عربي: بأن

للقلب لغة لا يفقهها العقل، فإنّ لهذا الرجل الكبير والاستثنائي في مسار وسيرة علم الرجال، قصة أخرى يصعب على العقل العادي فهمها أو استيعابها.

ولذلك تردّدت كثيراً في الكتابة عن الإمام مع تشوّقي الدائم ورغبتي الجامحة والتي لم تفارقني لحظة أو تنقطع عني يوماً، في التوفيق بمهمة نقل ولو بُعد واحد من أبعاد سيرة ذلك الرجل، أو وجه واحد من وجوه حياته، باعتباري شاهداً على العصر الذي عاش فيه، من النجف إلى باريس إلى طهران إلى قم، ومن ثم طهران، وما تزاحم من حوله من وقائع وأحداث وقصص مثيرة للجدل وللخيال، إلى أن ناداه الرفيق الأعلى لاستلام الأمانة فرحل وهو مطمئن البال.

لكنني ظللت أهاب الموقف حتى لا أقع في محظور أخشى وقوعه، أو أحرج أناساً على خلفية الاختلاف، على الرغم من أني أكن لهم كلّ الاحترام، إلى أن أحرجني من هو أشجع مني وأكثر جسارة على اقتحام سِيَر الرجال ومُعترك الأفكار، ألا وهو الصديق العزيز والأستاذ الكبير فضيلة الشيخ الحبيب نجف علي ميرزائي الذي له الفضل في هذه المبادرة التي أخرجتني من مهابتي وخشيتي تلك، وحقّقت لي ولو جزءاً صغيراً من رغبتي، وذلك عندما طلب مني أن أكتب عن هذا الرجل العظيم مُشترطاً عليّ أن لا تكون كتابتي بلغة من كتبوا حتى الآن، وإنما بلغة المقتحم للحدث والسِيَر من خارج سياقها التقليدي المعروف للناس، غير أنه قيّدني من جهة أخرى بسياق معيّن هو سياق عرض رسائل خاصة للإمام يُطلّ منها على الناس من غير سياقات الحدث المعتاد، فكان اجتهادي بانتقاء هذه الرسائل وهذه الطريقة في العرض والتحليل، وهذا العنوان للكتاب الذي بين يديكم، وكلّ أملي أن أكون قد وُفّقت على الأقل في إثارة

الشهية في البحث عن المزيد، إذا لم أكن قد وُفّقت في تحقيق غاية المقصود عند المُريد!

ومن أجل الجمع بين تراث الرجل وموروثه، فقد استعنتُ بمؤسّسة «آثار الإمام» الطيّبة الذكر بعضاً، وبالصديق العزيز المحقّق فضيلة الشيخ أحمدي مُقَدَّم قليلاً، فإن أصبت في ما وردت إليه فالفضل لهؤلاء الذين ذكرتهم وعندها لي أجران، وإن أخطأت في ما اجتهدت فالغفلة مني، وعندها لي أجر واحد لا أجران، فيما الأجر الآخر يبقى محفوظاً لصاحب الفضل الأول في لوح الزمان، وهو الرجل المقدام الذي شجّعني على اقتحام الصعاب في سِيَر الرجال الرجال، وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكّلت وإليه أُنيب، والله من وراء القصد، والله سبحانه وتعالى يحفظنا وإياكم بعينه التي لا تنام.

تمهيد

من البديهيّ أنّ أية نهضة إنسانية حضارية في حياة الأُمم والشعوب مدينة في ما هي مدينة إليه من العوامل الرئيسية، لتضحيات المفكّرين والرجال العظام الذين كرّسوا حياتهم لَهدي البشرية، حتى قيل في ما قيل في هذا المجال، كما ورد في الحديث الشريف: «مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء»، في إشارة واضحة إلى أهميّة الفكر النهضوي في تدعيم حركة الكفاح الجماهيري.

وحركة الإمام الخميني الإصلاحيّة والنهضوية وما آلت إليه من قيام وتأسيس أول جمهورية إسلاميّة في العصر الحديث، لا يُمكن فهمها بشكل دقيق وشفّاف إلاّ من هذه الزاوية بالذات.

ففي الوقت الذي كانت فيه حركة الإحياء العلمي في أوروبا تتقدّم بخطى ثابتة إلى الأمام، وفي وقت ظهرت فيه الفلسفات الماديّة الغربية والشرقية بشعاراتها البرّاقة والخادعة والثورية أحياناً مُبعِدة الدين والفكر الديني، وبصورة أخص الفكر الإسلاميّ، عن ساحة الحياة الاجتماعية للناس وجعله غريباً ومظلوماً حتى بين أهله، وبمساهمة من بعض أبنائه ممن كانوا يُسمَّون برجال الدين أو علمائه زوراً وبهتاناً، ومن خلال تفريغ منظّم للدين من محتواه النضالي

والثوري والكفاحي من جهة، وحصره في مجموعة من الطقوس والعبادات الفرديّة الصرفة مدعّمة بتحريضات وُعّاظ السلاطين الذين كانوا يقتاتون ويرتزقون من هذه المهمة التضليلية والسفرة غير المباركة من جهة ثانية، في هذا الوقت، برز رجل من بلاد فارس مدعّماً بعمّته السوداء التي تشير إلى ارتباطه بسلالة سيد العرب والعجم، لينقل وجهة المعركة عن الدين والتديّن بشكل عام، والفكر الديني الإسلاميّ بشكل خاص، من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم!

جاء ذلك في زمن أصبحت فيه بلاد العرب والمسلمين أرضاً خصبة وهدفاً مركزياً للقوى العظمى التي شدّدت صراعاتها من أجل الهيمنة والتسلّط والنفوذ على هذه المنطقة الحيوية والاستر اتيجية من العالم ولا سيّما بعد اكتشاف مصادر الطاقة فيها، وهكذا اشتعلت الحروب واحتدّ صراع النفوذ بين المعسكرين الشرقي والغربي في حينها، ووقعت إيران في قلب استقطاب دوليّ شديد.

وفي هذه الأثناء أيضاً تم اغتصاب الأرض الفلسطينية المقدّسة وقبلة المسلمين الأولى باعتبارها قلب العالم الإسلاميّ في إطار خطة إمبريالية صهيونية منظّمة، مفرزة بذلك كياناً اسرائيلياً مُصطنعاً صار بمثابة الخنجر الذي يُمعن يومياً في تشديد جراحات المسلمين وأصحاب الديانات المشرقية من أمة العرب، لاسيما أبناء شعب الجبارين الفلسطيني العظيم.

وقد كانت الأهميّة الإستراتيجية للوصول إلى المياه الدافئة جزءاً لا يتجزّأ من إستراتيجية الاتحاد السوفياتي، وهو إحدى الدولتين العظميين المتصارعتين على النفوذ آنذاك منذ أيام القياصرة، كما أنّ خصوبة أرض إيران وسعتها وتنوع مواردها وثرواتها وحجم سكانها وامتلاكها لحدود استراتيجية وطويلة مع روسيا الاتحاد السوفياتي، كانت سبباً آخر لأطماع القوّة العظمى الثانية؛ أي الولايات المتحدة

الأميركية، فيما كان إيمان الشعب الإيراني ومشاعره الدينية العميقة عقبة أساسية ودائمة في طريق هؤلاء المتسلّطين لمنعهم من الوصول إلى أهدافهم.

فقد كان ما كان من انقلاب رضا خان الشهير في العام 1920 المدبّر من قبل الإنكليز، بشهادة الوثائق التاريخية، في محاولة لإلحاق إيران بالمسيرة الأتاتوركية العلمانية لجارتها تركيا المنسلخة من عصر الخلافة العثمانية، بما حملته من مساع حثيثة لمسخ هويّة الدولة والمجتمع الإيرانيين، ومحاولة جعلهما مجرّد تابع للغرب الاستعماري الفاسد والمفسد.

ولا ننسى ما أعقب ذلك من إمعان في التبعية إثر انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، وهي الحقبة التي أفرزت سياسات سُلطوية جديدة نحو الداخل الإيراني، وتبعية أكثر تطوّراً في الأساليب وأكثر تعقيداً تجاه الخارج الاستعماري بعد قرار عزل الأب من قبل الثلاثي تشرشل ـ ستالين ـ روزفلت الذي مثّل في وقته حلف المنتصرين الجديد، والإتيان بالإبن المدلّل لدى الاستعمار محمد رضا شاه ليبدأ فصل جديد من فصول مظلوميّة الشعب الإيراني المسلم.

وفي هذه الأثناء كان قد بدأ اجتياح جديد للعالم برياح موجة من التغريب تحت عنوان الحرّية، وأخرى معاكسة لها في الاتجاه ظاهرياً، لكنها من جنسها وجوهرها تحت عنوان الثورة والعدالة، فكان فصل الاشتراك بينهما والقاسم المشترك الأعظم هو معاداة الدين والتديّن والمتديّنين، ومحاولة فصل عُرى الدين عن السياسة في الأوساط الشعبية كما في الحوزات الدينية، ما أدّى إلى انحسار دور عالم الدين الحقيقي وحصره في مجالس الخطابة والارشاد والوعظ الأخلاقي وسائر الطقوس الدينية السطحيّة والقشريّة.

هنا بالتحديد، ووسط مثل هذه الأجواء العالميّة والإقليميّة والمحليّة المشحونة باعتداءات النظام السلطوي الجديد الشديد التبعيّة للغرب، ووسط أمواج التيارات الفكريّة والسياسيّة المنحرفة والمتلاطمة هذه، برز رجل من قامة الخميني بطرازه السامي والرفيع والنادر في عالم النخبة العلمائية، لكنه الشعبي والمتواضع أيضاً في مسلكه ومأكله ومشربه ودينه ودَيْدنه، لينقل المعركة من حالة الدفاع كما ذكرنا، إلى حالة الهجوم، وليعيد الأمور إلى طبيعتها والمعادلة إلى توازنها الحقيقي، وليرد الصاع صاعين إلى كلّ من كانت تسوّل له نفسه الاعتداء على هويّة الشعب الإيراني الوطنية الضاربة في جذور الأرض، أو انتمائه الديني العريق الضارب في أعماق التاريخ، فكان أن نقل النظرة إلى الدين من كونه دين حيض ونفاس، وطقوس قراءة القرآن على القبور، وفقه انتظار سلبي خامل وكسول وهجران جوهر التديّن الوثيق الصلة بالحياة ونظام الحكم، نقله إلى النظرة الأصلية بعنوانها العريض المعروف بفقه المعاد والمعاش، أو فقه الشهادة والحياة وما يعكسه ذلك من فقه الرفض والاحتجاج!

مع هذا الرجل العظيم والاستثنائي وباقة من رسائله في التغيير والإصلاح.

1

الإسلام يساوي الحياة

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

لقد قرّر الرجل ومنذ نعومة أظفاره أن يكون سبيله في الدعوة والإرشاد هو ذلك الأسلوب القرآني العظيم، أسلوب محمد وعيسى وموسى، وحنيفية إبراهيم، وشرائع كلّ الأنبياء والرسل على امتداد التاريخ البشري، خصوصاً أولي العزم منهم، ما يعني بالتحديد أسلوب إحياء الدين وتجديد الفكر الديني بما يساوي ممارسة الحياة!

ولكن ماذا يعني إحياء الدين والدين حيٌّ لا يموت كصاحبه ومُحدثه وخالقه، لا سيما وأننا كمتديّنين قد تعلّمنا أنّ الدين هو من يحمل مهمة إحيائنا وليس العكس؟

يذكر الفيلسوف الكبير والشهيد العظيم الأستاذ مرتضى مطهّري ـ وهو من قال عنه الإمام الخميني بأنه «عصارة حياته» عندما سمع بنبأ استشهاده على يد الغلاة المتعصبين ـ يقول في كتيّب له تحت عنوان

إحياء الفكر الديني، واقعة مهمة في حياة الإمام علي (ع)، ورد فيها ما يلي:

«يشير الإمام علي (ع) في ما يُعتَقد أنها خطبته الأخيرة، التي يخاطب بها رفاقه والمخلصين له، ويذكر أنهم كانوا يحافظون على الدين حيا. يقول «نوف البكالي»: صعد علي (ع) على صخرة كان جعدة بن هبيرة قد وضعها، وعليه مدرعة من صوف، وحمائل سيف من ليف النخل، وكذلك نعلاه فألقى تلك الخطبة الغرّاء العجيبة التي أجرت الدموع، ثم تذكّر صحبه وخلاّنه فقال: «أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق، أين عَمّار، وأين النبهان، وأين ذو الشهادتين (يقصد خزيمة بن ثابت) أوه على إخواني الذين قرأوا القرآن فأحكموه، وتدبّروا الفرض فأقاموه، أحيوا السنّة وأماتوا البدعة».

نعم فإحياء السنّة وإماتة البدعة هنا تساويان بالتمام والكمال إحياء الدين، وإحياء الدين يساوي إحياء الحياة من جديد، وهاهو الأمل والمخلّص الذي ينتظره الجميع من المذاهب والطوائف والأديان كافة؛ أي المهدي المنتظر(عج) والذي سيخرج مع المسيح (ع)، كما تقول الروايات إنما يأتي من أجل «أن يحيي ميت الكتاب والسنّة» كما، تجمع الروايات.

من هنا، فإنّ الرجل الكبير الذي نحن بصدد تسليط الضوء على بعض رسائله في التغيير والإصلاح، لم يقم في الواقع قومته الشهيرة إلّا من أجل إعادة الحياة للناس ليعملوا من جديد أنّ السُنن الكونية التي توارثها الأنبياء، والتي وصلت إليه من خلال سيرة أجداده من سلالة رائد الإصلاح والتغيير محمد بن عبد الله (ص)، ومن ثم سائر المصلحين من بعده ممن هم من صلبه من أئمة الهدى وفي المقدمة منهم سيدنا الحسين بن علي (ع) الذي عرف بقولته المشهورة وهو يقوم لإحياء دين الله حيث قال:

«إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً وإنّما قصدت الإصلاح في أمة جدي. . . ».

وهكذا كان ديدن الرجل الثمانيني منذ أن دخل ساحة النضال والكفاح، ومنذ أن قرّر الخروج على الظلم والطغيان مدافعاً مستميتاً عن العدل والإنصاف، رافضاً فلسفة الصمت والسكوت على ممارسات الجور والعسف والحرمان على كلّ المستويات المحلّية والإقليميّة والدوليّة. فقد كانت هذه الفلسفة بمثابة المعادلة المفروضة على جموع البشرية في عصره تحت يافطة الخداع والاحتيال الدوليين التي كانت تصوّر لهم الدين بمثابة أفيون الشعوب؛ أي ما يساوي الموت والفناء، فيما كانت تصوّر لهم الفلسفات الحاكمة بالحديد والنار بمثابة فلسفة الحياة والسعادة الأبدية زوراً وبهتاناً!

لقد ظهر الإمام الخميني في الوقت الذي كان فيه العالم منهمكاً في صراع استقطابيّ طاحنٍ بين مدرستين فلسفيتيّن ماديّتين هما الرأسماليّة والماركسيّة، وفي الوقت الذي كان فيه «الغرب» قد توصّل إلى الاعتقاد، أو كاد، بأنّ زمن ماوراء الطبيعة قد ولّى إلى غير رجعة، وأنه قد انتهى من مقولات عالم الغيب والروح بعدما تم دفع آخر فصل من فصول الدين الإلهي لاسيما الفصل الخاتم منه أي الإسلام إلى الوراء بتهمة أنه «أفيون الشعوب»، واتهامه بالرجعية والتخلّف والظلاميّة ومناهضة مسيرة التقدّم والحياة «المدجّجة» بانتصارات عالم العلوم والمعرفة والتكنولوجيا. ظهر هذا رجل من بين الناس يمشي في الأسواق ويأكل الطعام مثلهم، وعلى الرغم من انتمائه إلى علماء الدين الموسومين بما سبق الإشارة إليه، إلّا أنه فضّل أن يقول للعالم: قفوا عندكم فقد حان وقت التخاطب بلغة مختلفة، والمحاججة بالدليل والبرهان والمكاشفة العظمى بالوقائع والأحداث، والمصارحة على كلّ المستويات لرفع الحيف والظلم

والعسف الواقع بحقِّ الدين والتديّن وإخراجه من غربته ومظلوميّته في الحياة العامة؛ لأنه هو عنوان الحياة وما عداه هو الموت والفناء!

لم يكن الخميني ككل الرجال على الرغم من أن مثله من صنفه كان كثيراً في العدد والعديد كما في العدة والإمكانات، إلا أنّ غالبيتهم كان «يسبّح» بحمد السلطان بدلاً من التسبيح بحمد الرحمن، كذلك لم يكن كسائر آيات الله العظام مع أن مقامه لم يكن سهل المنال، بل كان مجرد الوصول إليه لا يتم إلّا بشق الأنفس إن لم يكن أقرب إلى المحال، ذلك أنّه فضّل أن يشكّل عمود الحوزة الناطقة والشهيدة الشاهدة بينما كانوا في غالبيتهم أنموذجاً بائساً للحوزة الصامتة والساكتة على الظلم إلّا ما ندر!

وحده هو من قرّر النطق والكلام وقول ما كان صعباً إن لم يكن مستحيلاً في ذلك الزمان أن يقال!

فماذا قال ذلك الرجل الثمانيني وهو في أصعب الأحوال؟!

فلنستمع إليه وهو يخاطب شعبه من بُعد آلاف الأميال وهو مطارد من قبل قوى الاستبداد الداخلي والإقليمي المحيط، وبإسناد من قوى الهيمنة والاستعمار والطاغوت والاستكبار العالمي، وقد لجأ إلى باريس وسكن ضاحية «نوفل شاتو» متقبلاً شظف الغربة والمظلوميّة والحصار، على الدِّعة والراحة والسكوت والانتظار!

في الرسالة الأولى:

«لقد لجأ المستعمرون مبكراً إلى القيام بجردة واسعة لجغرافية بلداننا الإسلاميّة بحثاً عن الموارد الطبيعية وما يختزنه باطن الأرض من معادن وثروات وهي هائلة، كما قاموا بدراسة عميقة في علم النفس الاجتماعي ليكتشفوا ماهيّة المعوّقات الحقيقيّة التي ستقف

حائلاً أمام مهمة نهب الثروات والهيمنة على المقدّرات، فكانت النتيجة هي التالية:

ضرب الإسلام وعلماء الدين وثقافة المجتمع في الصميم!

كيف ذلك؟!

- لمواجهة الإسلام كان لا بدَّ لهم من تشويهه وتحريفه أولاً، ومن ثم إحاطته بكمّ هائل من الشُبهات!

فكان أن رصدوا الكثير من أجل إشاعة القراءة التي تقول إنّ الإسلام دين دُعاء وذِكْرٍ فحسب، ولا يتجاوز حدود ما هو أبعد من علاقة الفرد بربّه والسلام!

وعليه فليقرأ علماء الدين والمسلمون ما شاءوا من الصلوات والذكر، المهم أن لا يكون لهم علاقة بالنفط، أو الغاز، أو المعادن، أو ما يختزنه باطن الأرض من ثروات.. وليُلقوا على الناس ما شاءوا من دروس في الآداب الشرعيّة، ويتباحثوا في ذلك إلى ماشاء الله.. حتى وصل الأمر بالناس أن صدّقوهم في الدين لا علاقة له فعلاً بالسياسة ونظام الحياة! وأن التدخّل في السياسة لا يليق بشأن علماء الدين، فالدين بمعنى الصلاة في أوقاتها أول الظهر وأول المغرب وهذا هو ما يليق بالعلماء، فالدين بمساجده وعجائزه وشيوخه الذين يحضرون للصلاة ملك لعلماء الدين، فيما السياسة ومراكز السلطة والثروة هي من اختصاصهم، وهي ملك لأهل السياسة!

- بعد ذلك بدأ البعض منهم يتجرّأ أكثر فأكثر، ليصل إلى القول بأن الدين إنما هو رمز الرجعية والتخلّف، ولا يعدو كونه أفيوناً للشعوب! وهو ما بدأ يصدّقه للأسف الشديد كثير من الناس، بل وحتى بعض رجال الدين من أصحاب العمائم

والذين بدأوا بالترويج لفكرة أن الدين الذي بين أيدينا ماهو إلّا مجموعة من الأفكار التي ورثناها من ألف وأربعمائة سنة خَلَت وهو بالتالي لا يصلح إلّا لذلك الزمان!

- إذن الإسلام لا علاقة له بحياة الناس ولا بشؤونهم الدنيوية، وعلماء الدين ليسوا سوى رجال أتت بهم السلطات ليخدّروا بها الشعوب، وبهذا يكونون قد أشاعوا ثقافة التخدير الحقيقية التي تسهّل عمليات النهب المنظّم لكلّ مقدّرات الأمّة وثرواتها من دون أية مقاومة تذكر!
- أما أنا فأقول لكم يكفي أن تُراجعوا القرآن الكريم، وفي مطالعة سريعة وسطحية وعابرة فحسب، ولا حاجة حتى لمطالعة عميقة ودقيقة، فإنكم سرعان ما ستكتشفون أن هذا القرآن وهذا الدين لم يدعُ ولا حتى في آية واحدة الناس إلى الخمول أو الكسل أو التحلّل من المسؤوليات العامة، ولا حتى إلى مجرّد الذكر والدعاء والحرز وما شابه.... إنه مليء بالآيات التي تدعو إلى النهضة والتحرّك والحيويّة والجهاد والقتال وفنون الحرب ومواجهة مع المستبدّين والظالمين والطواغيت، بل إنه كتاب حرب شاملة على العسف والحيف والظلم الذي يلحق بالضعفاء والمستضعفين من الناس، من قبل أولئك المتربّصين بثروات الناس ومقدّرات حياتهم.

أنظروا إلى سيرة نبي الإسلام وقصص الغزوات والجهاد والمعارك التي ذُكرت في القرآن الكريم.

أنظروا إلى سيرة موسى (ع) وعصاه ماذا كان يفعل بها؟! ألم يستعملها من أجل محاربة فرعون مصر وسلطانها، هل استعملها لتخدير الناس؟! أم لتعبئتهم ودفع روح الحياة والنشاط في عقولهم وأفئدتهم للقيام ضد سلطان عصرهم الظالم؟!

- وعليه فإنّ من يقول إنّ الإسلام لا علاقة له بالحياة إنما يُعلن حرباً مفتوحة على الإسلام والدين والتديّن الحقيقي، وهذا هو الهدف من الزعم بأن الدين منفصل عن السياسة أو ضدّ لها!

- ولذلك نرى أنهم عندما نقبوا هذين السدّين، أي الإسلام وعلماء الدين، فقد سَهُل عليهم نهب النفط وسائر الثروات من بلادنا لتصبح بيد الأجنبي وأذنابه، ولم يتحرّك أحد أو ينطق أحد ببنت شفة!

- الأمر نفسه ينطبق على ثقافتنا ومثقفينا، فقد عملوا كلّ جهدهم أن لا يفسحوا بالمجال، لأن يظهر طبيب مستقل ولا مهندس مستقل ولا سياسي مستقل، ومن حاول سعوا بكل ما يستطيعون لأن يصبح منهم أو قريباً منهم، أو أن يكون ميله لهم وليس للناس وهموم الناس واهتماماتهم!

- وهكذا يكونون عملياً قد نهبوا ثرواتنا، مقابل تحويل بلادنا إلى ترسانة للأسلحة الفتّاكة والمتطوّرة التي لاحاجة لنا بها، إلّا في إطار خدمة السيد الأجنبيّ الذي يحرّك ألعوبته المدعو محمد رضا شاه، ذلك «الرُّجَيل» الذي لم يكن يعرف لا هو ولا زبانيته لا استعمال هذا السلاح ولا حتى الهدف البعيد من ورائه؛ إذ إنهم حوّلوا البلاد عملياً إلى قاعدة لخدمة أهداف أمريكا في صراعها على النفوذ مع الاتحاد السوفياتي.

- ثم بعد ذلك يتهموننا بأنّنا رجعيّون وظلاميّون ولا نريد المدنيّة أو معادون للحضارة والتقدّم! أو أننا نريد العودة بالبلاد إلى زمن ركوب الحمير كما يدّعون!

- ونحن نسأل في المقابل من هو المتمدّن والحضاري هنا؟! الذي يفرّط بثروات بلاده من أجل 60 ألف مستشار أمريكي

،

صاروا يتحكّمون بكل أمور الحياة في بلادنا، ولا يملك من قدرة استخدام الأسلحة المتطوّرة التي صرف عليها كلّ ثروة البلاد، إلّا البنادق والرشاشات التي يوجّهها إلى صدور تلاميذ المدارس وتلميذاتها الذين يتظاهرون من أجل لقمة العيش، وإلى طلبة الجامعات وعمال المصانع الذين يتظاهرون دفاعاً عن الاستقلال والحرية، أو يصرفون ملايين الدولارات على صحافة أجنبية تحاول تلميعهم دون جدوى؟! أم أولئك الذي يطالبون برحيل هذه السلالة وأذنابها الذين لا يفوق تعدادهم الستين ألفاً، من أجل أن يحيا الوطن ويحيا الشعب حياته الحقيقية حراً مستقلاً، وإنقاذ البلاد من هاوية السقوط والانحدار الحتمي إلى الهلاك؟!

(بعض المضامين مما ورد في بيانات الإمام روح الله الموسوي الخميني كان قد ألقاها أمام جمع من الطَلَبة والمهاجرين الإيرانيين في ضاحية نوفل شاتو الباريسية في 14 من اكتوبر من العام 1978 من القرن الماضي).

ومن خلال مطالعة سريعة لما ورد في النصوص المذكورة أعلاه نستطيع القول إنَّ الرجل الثمانيني أراد من خلال كلّ ما تقدّم أن يقول إنَّ الدين والتديّن ليسا مفصولين مطلقاً عن مشروع الحياة العامة للناس إن لم يكن العكس تماماً هو التصحيح؛ أي أن من يحرص على تقديم صورة للدين على طريقة ما لله وما لقيصر لقيصر إنما يعمل في الواقع لأن يكون ما لله لقيصر، وما لقيصر لقيصر، بمعنى آخر إخراج كلّ من يهمه أمر الناس من العلماء والنخب ومعهم مجمل الناس من الاهتمام بحياتهم ومصيرهم، وهو ما سيعني عملياً تسليم مفاتيح كلّ شيء للقيصر أو السلطان أو الملك الحاكم ليتحكّم به كيف يشاء فيما الناس نيام، وهو ما لم يكن ليقبل به أي إنسان

أو صاحب عقل أو ضمير، لا سيما إذا كان من العلماء وأهل الفكر والتدبير، وهو ما لزم أن يقال على لسان صاحب المقال!

في الرسالة الثانية يقول الخميني:

- **يبدو أن الأمور تتطوّر باتجاه أن تتعطّل إيران بشكل نهائي، ونحن من جهتنا قد درسنا الأمر جيداً، وهانحن نرى الشعب ينادي بضرورة رحيل الملك وزبانيته، وهو لن يهدأ ما لم يرحل هذا الملك الفاسد الذي باع البلاد للأجانب، ونقول للجميع إنَّ إصلاح الأمر بوجود الملك بات من المحال، هذه هي إرادة الشعب ونحن نتبع إرادة هذا الشعب!**
- **الخطوة الوحيدة المتبقية لديهم هي الانقلاب العسكري، وهذه الخطوة ستعني أن يذهب هذا الملك ويُؤتى بخادم آخر للأجانب أي أمريكا والاتحاد السوفياتي وسواهما، وهذا لن ينفعهم مطلقاً؛ لأنَّ الشعب لن يهدأ ولن تقرّ له عين ما دام هؤلاء الأجانب يتحكّمون بحياته، كما لن يستطيع أحد كسر موجة الإضرابات التي تجتاح البلاد لأنّ الشعب يريد من ورائها الاستقلال والحرّية وأن يتحكّم هو بمصيره!**
- **ونحن عندما نطالب بالحكومة الإسلاميّة، فإننا نقصد الحكومة التي يتمنّاها الشعب، والتي يصفها الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، أي أن تكون اليد الحاكمة هي يد الله المتمثّلة في حكم النبي والشعب!**
- **إن ما نريده هو حكومة دستورية تتّبع الدستور حقاً، لا أن تتّبع الشيطان، فتكون حكومة الشياطين والأبالسة المتجسّدة بين الناس بصورة حكومة الملك محمد رضا خان المخالفة لما يرضي الله وما يرضي الشعب!**

- نحن نريد إقامة حكومة إلهيّة تنسجم مع آراء الشعب وما يريده... حكومة موافقة ومنسجمة مع إرادة الله ومع ميول الشعب، حكومة الله التي تريد إقامة القسط والعدل بين الناس، وحلّ مشاكل المستضعفين والطبقة من أصحاب الدرجة الثالثة من المجتمع ممن هم محرومون من الماء والكهرباء والخبز وكلّ شيء!

- يقولون عنا إننا نريد أن نأتي بحكومة من السماء! كلا يوجد على هذه الأرض أشخاص كفوءون وقادرون على العمل طبقاً لمبادئ العدالة، فالشرفاء موجودون في داخل إيران وخارجها، وهم قادرون على تسيير أمور بلدهم وإقامة القسط بين الناس، والالتزام بالعدالة، وتنظيم شؤون الدولة!

- نحن نريد حكومة تلجم أفواه أولئك الطفيليين الناهبين للنفط والثروات العامة، والمدمّرين للاقتصاد الوطني، نعم نريد لجم هذه الأفواه الشرهة الكبيرة التابعة للشاه وعائلته وزبانيته التي تريد أن تبتلع كلّ شيء، حتى نتمكن بالمقابل من توزيع الثروة على أصحاب الأفواه الصغيرة من أفراد عامة الشعب ليحصل كلّ منها على نصيبه!

- لقد فكّرنا طويلاً بأمر الاقتصاد الوطني الذي يتغنَّون بالدفاع عنه، وتوصّلنا إلى أنه لو تخلّص الشعب فعلاً من أصحاب الأفواه الكبيرة والشرهة تلك، لأصبحت ثرواته أكثر من حاجته، فنحن أمة غنية بالفعل، ولكنْ كَثُر اللصوص من أصحاب الأفواه الشرهة من الطفيليين المحيطين بالقصر إلى أصحاب القصور الملكيّة أنفسهم، إلى أسيادهم من المستشارين الأجانب، إلى عبيدهم من أصحاب وسائل

الإعلام الأجنبية التي تلمع صورتهم يومياً، وكلّهم بحاجة إلى الملايين يومياً لإطالة حكم الطاغية وزبانيته!

(بعض المضامين مما ورد في بيانات الإمام روح الله الموسوي الخميني، والتي كان قد ألقاها أمام جمع من مناصريه في «نوفل شاتو» الضاحية الباريسية في 5 نوفمبر من العام 1978 من القرن الماضي)

وهنا نلاحظ بوضوح كيف أنَّ الرجل الذي لطالما اتّهم زوراً وبهتاناً بأنّه يسعى لإقامة حكومة أو دولة تحكم بما يسمونه بالأيديولوجيا الرؤيوية، أو بأسلحة ما وراء الغيب، أو بحكومة دينية متعصبة كما يقولون، نراه كيف يؤكّد ومبكراً جداً على أهمية آراء الشعب وعلى الدستور ومراعاة العصر ومتطلباته، وليس لديه همّ أهمّ من حكم القانون، ولكن المعيار هو ما يقوله وما يراه الشعب، وما تفرزه صناديق الاقتراع بعيداً عن حِيَل وخداع المتسلطين على آليات السلطة والحكم بالحديد والنار، كما هو منتشر في الحكومات القائمة على مثلّث المال والقوّة والتزوير كما هو معروف!

في الرسالة الثالثة:

- **أينما تذهبون اليوم في إيران تسمعون نداء واحداً: فليرحل الملك ولترحل سلالته، هذه هي إحدى مطالبات الشعب الإيراني كافة باستثناء خدام أمريكا والملك والذين يرتزقون منه، وحساب هؤلاء غير حساب الشعب بالطبع، فالشعب الإيراني هم أولئك المنتشرون في الأسواق والمزارع والمصانع والجامعات، والذين هم من يدير المصانع والمؤسسات العامة، ولذلك فأنا، وباعتباري أحد افراد هذا الشعب، أنادي مثلهم: فليسقط الملك ولترحل سلالته!**

- أما بالنسبة إلى الجيش فعليه أن يختار، هل هو جيش الشعب الذي يعمل لحفظ البلاد وخدمة الشعب مثلما يجب على كلّ حكومة في أي بلد كان؟!، وبذلك يكون وطنياً ومستقلاً أم أنه يريد أن يكون جيشاً تابعاً للأجانب ويعمل في خدمتهم خلافاً لمصالح بلده وشعبه؟!

- إن الجيش الذي يضرب الشعب ويؤمّن النفط للأجنبي ليس جيشنا، بل هو جيش يعمل متطوعاً لإيصال نفط الشعب لأمريكا فهو إذن تابع لها، في حين أن الشعب يقول النفط نفطنا ويجب أن نقطعه عن أمريكا!

- إن ما يقوم به الجيش حاليًا من محاولات وقف الإضرابات العمالية في عبادان وغيرها، إنما هو تدمير لثروات البلاد وتسهيل نهبها من قبل الأجانب لتذهب في جيب الملك وأولئك الزبانية ممن يُسمَّون بحاشية الملك وأفراد عائلته، هذا فيما يذهب نصيب منها في جيب أمريكا وإنكلترا فيما يقدّم الغاز الإيراني للاتحاد السوفياتي، هذا بينما يريد الشعب وقف هذا النهب المنظّم للثروات.

- في المجال العلمي أيضاً نعاني ما نعاني فهل لدينا ثقافة تعليمية مستقلة فعلاً، لا يتدخّل فيها الأجانب؟! وهل لدينا جامعة مستقلّة تفكّر بصورة ذاتية وتأتمر بأوامر رؤسائها؟! أم أنّ هذا الأمر بات من الأمنيات والأحلام؟! أم هل كان لدينا منذ ما بعد الحركة الدستورية إلى اليوم ثقافة علمية سليمة، أم أنها ثقافة تبعيّة أعدها الأجانب لنا؟!

- حتى إذا أردنا تأسيس مستشفى فإن الأمر يلزم أن يأتي أحد من الخارج ليضع خريطة تلك المستشفى! أليست هذه مناهج استعمارية لا تريد إلاّ الضرر لبلادنا؟!

- في مجال الطاقة الذرية الأمر فظيع وخطير للغاية، فقد زارتني مجموعة من الشباب الإيراني المشتغلين في هذا المجال في الخارج، وقالوا لي إن كلّ ما يقومون به عمل عبثي ولا طائل من ورائه لأنه رهين وجود النفط الذي سينضب بعد نحو عشرين عاماً فيما الحكومة وأسيادها لا يسمحون لنا باكتساب العلوم المتطوّرة في هذا المجال، ويبذلون كلّ سعيهم لحبسنا في حدود ما هو مسموح من قبل الأجنبي وأذنابه فقط!

- لقد دمروا ولا يزالون أُسُس الدولة، فالدولة تقوم بطاقاتها البشرية لاسيما الشابة منها، وإذا ما فقدتها تزول تلك الدولة، وهاهم قد جعلوا البلاد مشلولة في مجال عمل الطاقات البشرية الشابة!

- لقد كان لإيران ثروة زراعية تُغنيها عن الاحتياج للخارج، بل كان لها أن تكون من المصدّرين، حيث كان بإمكان محافظة واحدة كمحافظة أذربايجان مثلاً أو خراسان أو فارس، كلّ واحدة بمفردها، على توفير ما تحتاجه إيران، فيما وصلت بنا الحالة اليوم إلى أن يعلن النظام أن ما لديه من المنتجات الغذائية لا يكفي سوى لثلاثين أو ثلاثة وثلاثين يوماً فقط! وإذا ما حصل أيّ طارئ فما علينا إلّا أنّ نمد أيدينا للأجانب لنتسوّل ونستجدي منهم! هل هذا معقول؟! إنه من نتائج نهبهم غير المشروع للمراتع العامة هم وأسيادهم من البريطانيين الذين، وكما تؤكّد الوثائق المتوفّرة أن أعداداً من خبرائهم قد قاموا بجولة في البلاد وحدّدوا من خلالها أفضل المراتع الطبيعية الصالحة للرعي، وقاموا بمنحها لملكة بريطانيا لتتقاسم ملكيّتها مع شرذمة من شراذم النظام!

- لقد دمّروا كلّ شيء وأصبحنا تحت رحمة الأجانب في كلّ شيء!

- لكن الشعب الإيراني اليوم يعيش في أحسن حالاته بعدما تغير رأساً على عقب، فقد كان لا يتوانى عن رفع أعلام النظام في يوم ولادة الملك من كلّ عام، وإذا به يتحول اليومُ وفي فترة قصيرة نسبياً من حال إلى حال لم يشهد مثلها لا في التاريخ الإيراني الحديث ولا في تاريخ البلدان الأخرى، لقد أصبح اليوم في حالة جديدة يقف فيها الطفل إلى جانب الشيخ العجوز الطاعن في السن إلى جانب المرأة، وينزلون إلى الشوارع ويردّدون جميعاً الموت للملك وللسلالة البهلوية!

- إنها لحظة تاريخية نادرة قد لا تتكرّر أيها السادة، حافظوا على هذه النهضة وامضوا فيها حتى النهاية حتى الحصول على الاستقلال والحرية؛ لأننا مسؤولون أمام الله والأجيال المقبلة التي ستحاسبنا في المستقبل إذا ما أبدينا ضعفاً، فتقول لنا: أين كنتم ولماذا عجزتم عن انتهاز تلك الفرصة الذهبية النادرة؟!

- لا تدعوا النهضة تخمد، نحن جميعاً مسؤولون، الزعماء والأحزاب والعلماء والطلبة الدينيين والجامعيين والكسبة والمحامين وجميع فئات الشعب علينا جميعاً واجب الحفاظ على هذه النهضة حية؛ لأنها إذا خمدت لاسمح الله، فإنَّ الطاغية سيسلّ سيفه من جديد ويبيدنا عن بكرة أبينا، وعندها سنبقى تحت رحمة الظالم إلى أبد الآبدين!

- على الجميع أن يحذر مما يُحاك في الأروقة الخلفية من مؤامرات بخصوص ما بات يُعرف بسياسة الخطوة خطوة، أي نأخذ شيئاً ونعقد تسوية هنا أو هناك حتى تحين الفرصة مرة أخرى!!

إحذروا هذه السياسة الخبيثة فالمرحلة حسّاسة وخطيرة للغاية، والحالة اليوم لم تعد كما كانت في السابق حتى يُقال: إذا لم يتحقّق المطلوب اليوم فسيتحقّق غداً، كلا، فأنتم اليوم بين الموت والحياة!

(بعض مضامين مما ورد في بيانات الإمام روح الله الموسوي الخميني أمام جمع من مناصريه في ضاحيةً «نوفل شاتو» الباريسية في21 من نوفمبر من العام 1978 من القرن الماضي)

وكما تلاحظون هنا أيضاً وأيضاً، فإن الإمام يذهب عميقاً في طروحاته التي تلامس كلّ مناحي الحياة الإنسانية للشعب على العموم، إلى درجة أن طرحه الديني يصبح عند الناس أشبه بمعادلة أن الإسلام يساوي الحياة عنده، حتى إذا ناداهم للدفاع عن الإسلام، تراهم قد فهموه وقرأوه الدفاع عن الحياة، فإذا بهم ينزلون إلى الشوارع بصدورهم العارية دفاعاً عن الاثنين وعن زعيمهم الذي يصبح لا بديل له، ويصبح هو فصل الخطاب بين الموت والحياة، وتقوم قيامة إيران الشهيرة، وتسقط قلاع الشاه الطاغية الواحدة بعد الأخرى، وتنبهر الدنيا ويُبهت الذين ظلموه والذين ظنوا ذلك الملك يوماً أسداَ، فيُقهرون ويُذلّون تماماً كما قُهر الملك وأُذل هو أيضاً، ويذعنون لإرادة الناس كما أذعن هو وتصبح العاقبة للمستضعفين!

ولو دققنا في رسالة الإمام الخميني الأخيرة الآنفة الذكر فقط لانتبهنا إلى موضع تغيّر الشعب الإيراني وكيف أنه تحوّل من شعب ينزل إلى الشوارع للاحتفال بأعياد الملك، إلى شعب ينزل إلى الشوارع تلك نفسها ولكن هذه المرة لإنزال الملك عن سدة الحكم وطرده، فماذا حلّ يا ترى؟ وكيف انقلب الناس بهذه السرعة كما يقول الرجل الثمانيني؟

أتعرفون لماذا وكيف؟ ببساطة، بعدما جاء من يشرح لهم أنّ منظومة السلوك التي كانوا يعيّرونكم بها وهي عاداتكم وتقاليدكم

ونظام حياتكم وطريقة أكلكم وشربكم وتدخل في الصغيرة والكبيرة من تفاصيل حياتكم، هي ما نسمّيه نحن العلماء الإسلام، وهي ما نسميه الدين، وهي هي نفسها حياتكم التي يريدون أخذها وانتزاعها منكم من أجل أن يحيوا هم، فيما يتمّ دفعكم أنتم قرابين على مذبح الموت والفناء. نعم هذه القراءة المتقدّمة والمتطوّرة والملتصقة بحياة الناس ورزقها قيامها وقعودها هي التي جعلت الناس ينتقلون وبتلك السرعة التي يشير إليها الإمام الخميني من مُحبين لأعياد الملك إلى مدافعين أشدّاء عن الإسلام وعلماء الإسلام.

فالفضل إذن لمن بيّن للناس أنّ الدين ما هو إلا أهزوجة الحياة الحرّة الشريفة المليئة بالقِيَم والرفعة والسموّ، بعدما ذاق الناس الأمرّين من تحالف ملوك الموت والاستبعاد للناس وخدّامهم الأشقياء من مرّوجي ثقافة أن الدين أفيون الشعوب من نُخَب وفقهاء سلاطين باعوا أنفسهم لشيطان السلطة وهوى النفس الأمّارة بالسوء.

2

«القومة» الشعبيّة خيار الانتصار

اتّجهت الأنظار إلى الإمام روح الله الموسوي الخميني في الفترة ما بين وفاة مؤسّس الحوزة العلمية لمدينة قم المقدّسة آية الله عبد الكريم الحائري ـ وقد لعبت هذه المدينة وحوزتها في ما بعد دوراً محورياً في النهضة الوطنية والدينية الجديدة ـ وبروز وتبلوُر مرجعية آية الله العظمى البروجردي، والتي كان للإمام الخميني دور مميّز فيها، وما رافق هذه الفترة من أحداث ووقائع مصيرية بالنسبة إلى إيران.

وقد حدث ذلك وسط أتون الحرب العالمية الثانية، وتداعيات انهيار نظام عالميٍّ قديمٍ كانت اليد الطولى فيه لبريطانيا التي جرفت معها الشاه القديم رضاً خان، وفي ظلّ بروز نظامٍ عالميٍّ جديدٍ صار للولايات المتحدة الأميركيّة الكلمة الفصل فيه وماً نَجَم عن ذلك من تعيين شاه جديد على البلاد هو محمد رضا بهلوي!

ويجدر القول إنّه بسبب حالة الاضطراب والصمت التي كانت تسود المجتمع الإيراني من جهة، ومناوءة غالبية الأقران من رجال

الدين في الحوزات الدينية العلمية للعمل السياسي من جهة أخرى، ظهر دور الإمام الخميني الرجل الظاهرة وصاحب المواصفات التي تُميّزه عن سائر زملائه، في ما سيعتبر بعد ذلك بمثابة الأرضيّة الضروريّة واللازمة لنجاح ما سيدوّنه التأريخ بمثابة «القومة» الشعبية العارمة والشاملة، وهذه «القومة» لم يكن ثمَّة بديل عنها من أجل إسقاط مشروع الفساد المتفشّي في الطبقة السياسية الجديدة الحاكمة تحت ظلّ الشاه الدكتاتور وشرطي المنطقة المطيع لتعليمات القوّة العظمى الجديدة!

تلك الطبقة بتحالف سلطة الملك الجديد مع فئة طفيلية من أشباه المثّقفين الليبراليين من المنبهرين بالمستعمر الجديد، والتي كان جلّ اهتمامها في المرحلة الجديدة، إبعاد تحالف الطبقات الشعبية المعارضة المتمثّلة بجمهور الطلبة وعلماء الدين، والطبقات الكادحة من العمال والفلاّحين والتجار والكَسَبة من جمهور البازار الإيراني العريض، عن مسرح الأحداث!

ولما كانت تلك المرحلة في غاية التعقيد والخطورة والتداخل والتشابك في آن معاً، فقد كان المطلوب تاريخياً، من أجل إحداث التغيير الممكن، قيادة من نوع خاص، وأداء من نوع متميّز وممتاز أيضاً، يقوم على الإحاطة بمنهج تعبويّ قرآني شامل يتخطّى حدود المناهج الحزبية والفصائلية الرائج آنذاك!

فالسلطة الحاكمة الجديدة كانت تتحيّن الفرص للاصطياد في الماء العكر لضرب أيّ مشروع نهضوي، وهو ما جعلها تتمكّن من إسقاط مشروع الكفاح المسلّح الإسلاميّ الذي كان قد انطلق لتوّه بقيادة منظمة «فدائيان إسلام» بقيادة السيد نواب صفوي، وقد حقّقت هذه المنظمة إنجازاً وطنياً بإسقاط رمز السلطة الخائن الفريق «رزم آرا» عن سدة رئاسة الوزراء.

والواقع أنّ السلطة الاستبدادية كانت تريد أن تُري «العين الحمراء» ـ كما يُقال ـ لأية معارضة، فتمّ القبض على القيادة الجماعيّة للمنظّمة الفتية الآنفة الذكر، وإيداعها السجن، ومن ثم محاكمتها في وقتٍ لاحقٍ في محكمة عسكرية خاصة، وتنفيذ حكم الإعدام الجماعي بحق أعضائها فجر يوم 17 يناير 1956 م، وهو ما سمح للسلطة المَلَكيّة في ما بعد بالتغلغل إلى قلب الحركة الشعبية وإحداث الانشقاق الذي كانت تطمح إليه بين التيار الوطني الذي كان يتمثّل وقتها برمزه الشهير الدكتور محمد مصدق، وبين التيار الإسلاميّ الذي كان يمثله آية الله العظمى السيد محمود الكاشاني آنذاك، وذلك بمساعدة خبيثة من حزب «تودة» الشيوعي التابع والمنفّذ لأطماع موسكو أيام الاتحاد السوفياتي. وقد أفضى ذلك إلى إسقاط حكومة الجبهة الوطنية بقيادة مصدّق صاحبة الإنجاز التاريخي الشهير، المهم؛ أي تأميم النفط، وما انتهى الأمر إليه من الانقلاب الشهير الذي قادته ورعته المخابرات المركزية الأميركية (C.I.A.)، والذي أعاد الشاه المطرود محمد رضا بهلوي إلى الحكم مجدّداً في 19 آب من العام 1953م

وفي هذا السياق لا بدّ من التوقّف ملياً عند نظرة القائد الرمز الذي نتحدث عنه هنا بخصوص هذه الأحداث؛ حيث تؤكد المصادر المقرّبة والوثيقة الصلة بحركته الشعبية أن سماحته رفض على سبيل المثال إعطاء فتوى لمنظمةً فدائيي الإسلامَ باغتيال رئيس الوزراء حسن علي منصور رغم تعاطفه ومساندته لنضالات تلك المنظمة الجهادية المعروفة، ما اضطُرّ قادة المنظمة للّجوء إلى أحد المراجع الطهرانية المقرّب منهم كما يقال، أو أنهم قد يكونون لجأوا إلى أحد مراجع مدينة مشهد ـ المرجع الميلاني ـ للحصول على تلك الفتوى وقد جاء رفض الإمام لا لشيء، إلا لكي لا يسجل على

نفسه مخالفة مبدئية أو خروجاً من جانبه على النهج الإصلاحيّ والتغييري الجذري الجماهيري الذي آمن به وظل محافظاً عليه بعيداً عن الشبهات، حتى بعد وصوله إلى السلطة وطوال حكمه المباشر الذي دام عشر سنوات.

في مثل ظروف دوليّة وإقليميّة مُؤاتية وأوضاع داخلية كتلك التي مرّ ذكرها، توفّرت الأرضيّة المناسبة للولايات المتحدة الأميركية لفرض هيمنتها الكاملة على إيران، وصار الاهتمام الرئيسي للمستعمر الجديد والسلطة المحلّية الديكتاتوريّة التابعة له، هو الهيمنة على منابع النفط والطاقة الإيرانيّة، وإيجاد قواعد عسكريّة إستراتيجيّة متقدّمة على أرض إيران في مواجهة السوفيات، وهو ما كان يعني عملياً تحويل إيران كلّها إلى قاعدة عسكرية لرعاية المصالح الأميركية في المنطقة، وتحويل سلطة الانقلاب المَلَكي إلى أداة طيّعة بيد المستشارين الأجانب الذين بدأوا بالسيطرة العملية على كلّ نواحي الحياة، من سياسة وأمن واقتصاد وزراعة وثقافة واجتماع، تحقيقاً لهدف النهب المنظّم للثروات والمقدّرات على يد المستعمر الجديد!

وحتى تنجح الخطة الموضوعة بصورة متكاملة ومؤاتية، كان لابدّ من «عرض إصلاحيّ» في الداخل أُعدّ له جيداً في دوائر الاستخبارات الأجنبيّة تحت عنوان واحد تقريباً لكل الأقطار والأمصار التابعة للنفوذ الأجنبي، والأميركي منه بشكل خاص، ألا وهو عنوان «الثورة الزراعية» و«الثورة البيضاء». ولما كانت إيران قد حظيت بالتسويق والترويج لنظامها بشكل خاص على أنه نظام «جزيرة الاستقرار» في ما سُمّي بالشرق الأوسط، لشدة ثقة الأميركيين بالشاه وثقته هو بهم، فقد كان نصيب إيران من «الإصلاحات» الأمريكية هو الأعلى، والذي كان يُعوّل عليه كثيراً ليكون النموذج المطلوب تعميمه، لولا ما سنكتشفه في ما بعد من خطة ردعية وضربة استباقية

أرادها الله أن تكون على يد ذلك الرجل الظاهرة وذلك الشعب المثال والنموذج، اللذان أطاحا بكل الأحلام الأميركيّة والشاهنشاهية «الوردية» بفضل مثابرتهما وصمودهما وثباتهما المحير والمنقطع النظير!

وهنا بالذات نكتشف أهمية تحرّك الرجل الظاهرة؛ إذ لم تعد المنظمات الحزبية التقليدية، ولا وسائل الكفاح المستحدثة من مسلّحة وغير مسلّحة السياسية منها أو المطلبية، ولا التحرّكات أو المبادرات الاعتراضية المعروفة والمألوفة، لم تعد كل هذه الإجراءات بقادرة على إحداث أثرها التغييري المطلوب أمام مشروع المستعمر الشامل للإرهاب والقتل والدمار؛ لكنه المغطى بطموحات الديكتاتور الصغير الطامح للعب دور الرجل «الإصلاحيّ» وصاحب المظهر «المتمدن» وشرطي المنطقة وكلب حراستها الأمين!

هذه الظروف بمجملها كانت تستدعي «قومة» شعبية ليس لها إلا رجل من صنف الإمام الخميني، ونجاح هذه المشروع كان يعني ضرورة الثبات في الموقف، والمثابرة على العمل الدؤوب، والصمود في الميدان، والإحاطة بالحدث من كلّ جانب، والاستقامة في النهج، وعدم التردّد حتَّى لو بدت الظروف غير مؤاتية.

هذا المشروع هو ماكان قد بدأ به الرجل أصلاً منذ سلطة رضا خان الأولى، من خلال بيانه السياسي الأول الشهير، والذي كان يومها قد صدر رداً على تخرّصات مثلّث أعداء الدين والشعب من سلطة قمعية وأشباه مثقّفين وأشباه متديّنين ووُعّاظ سلاطين كانوا يحاولون الترويج للبهائيّة إلى جانب فرق ضالّة أخرى، ولقد افتتح الإمام بيانه ذلك، كما هو معروف، بالآية القرآنية: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾؛ حيث دعا يومها علماء الدين المسلمين وطبقات الشعب الإيراني كافة إلى الثورة على الأوضاع

الفاسدة، وسط صمت عُلَمائي رهيب، واضطراب في الرؤية شديد لدى عامة رجال الحوزة الدينية وأوساط المفكّرين والمثقّفين الليبراليّين والدينيّين!

. . .هكذا كان ما كان من مسيرة نضالية استمرّت لعقود إلى أن حان وقت «القومة» الكبرى، وآتت أُكُلها في نهاية سبعينات القرن الماضي.

ولغرض الاطلاع على تلك المرحلة وظروفها نذكر في ما يلي نماذج حية من سياق وقائع وأحداث تلك «القومة» الشهيرة في باقة من رسائل ذلك المصلح والمجدّد المشهورة:

- في 22 مارس 1963 م أعلن الإمام الخميني تحت وطأة حصار المدرسة الفيضيّة الدينية العلمية في مدينة قم المقدّسة، وأمام حشد من تلامذته وهم محاصرون من قبل جلاوزة الشرطة والمخابرات ـ السافاك ـ وهم يحاولون إسكات صوت المعارضة لمشروع النظام الجهنمي، أعلن مايلي:

«لقد أعددتُ صدري لتلقي حراب رجال أمنكم؛ لكنني سوف لن أنحني أو أخضع أمام استهتارات جبابرتكم، ولسوف أبيّن بإذن الله أحكام الله في وقت أراه مناسباً، وطالما بقي القلم بيدي سأعلن للملأ عن أعمالكم المنافية لمصالح البلاد العامة»!

- بمناسبة مرور أربعين يوماً على الواقعة الآنفة الذكرِ أصدر الإمام بياناً يعلن فيه ما يلي:

«إنني أعلن لرؤساء البلدان الإسلاميّة والعربية أنَّ علماء الإسلام وقادة الدين والشعب الإيرانيّ وجيشه الشريف هم أشقّاء البلدان الإسلاميّة، ويواسونهم في السرّاء والضرّاء، ويستنكرون المعاهدة مع عدوّة الإسلام وإيران: إسرائيل»!

ثم كان ما كان من اعتقال الإمام، وانتشار الانتفاضات في المحافظات، التي أجبرت النظام على إطلاق سراحه لتصل إلى أوجها في الخامس من حزيران من العام 1963 م وهي الانتفاضة الأساسية والمركزيّة الأولى التي كشفت عورة النظام!

- بعد إطلاق سراحه مباشرة أعلن في خطابٍ شهيرٍ له جاء فيه ما يلي:

«حتى لو شنقتم الخميني، فإنّه سوف لن يهادن، وليكن في علمكم أنه حتى لو هادنتم أو ساومتم الخميني فإن الشعب المسلم سوف لن يهادنكم، وليكن في علمكم أيضاً بأننا لازلنا على موقفنا الذي كنّا عليه نعارض كافّة التشريعات المنافية للإسلام وجميع ممارساتكم المستهترة»!

- في تشرين الأول من العام 1964 م، بعث الشاه اللاّئحة القانونية الشهيرة المعروفة بلائحة «الحصانة» للمستشارين والرعايا الأميركيين في إيران إلى البرلمان الإيراني للتصديق عليها، فقامت الدنيا ولم تقعد بفضل تحالف الإمام الخميني والشعب ضدَّ هذه اللاّئحة المشؤومة، الأمر الذي استدعى من الشاه أن يبعث مندوباً خاصا من قبله إلى قم المقدّسة لمقابلة الإمام ليبلغه ما قيل إنها رسالة مهمة وخطيرة للغاية، وذلك بعدما سمع أنه بصدد إلقاء خطاب خطير بهذا الشأن، إلا أنّ الإمام رفض استقبال مندوب الشاه، ما اضطر الموفد الشاهنشاهي إلى نقل نصها إلى نجله الأكبر السيد مصطفى الخميني وكان مضمونها: *«إنّ الولايات المتحدة الأمريكيّة هي في وضع من حيث القوّة؛ بحيث إن مهاجمتها تُعدّ أخطر من مهاجمة الشخص الأول في النظام والدولة، فإذا كان آية الله الخميني عازمًا على إلقاء كلمة في هذه الأيام، فيجب عليه أن*

يحذر من المساس بالحكومة الأمريكيّة؛ لأنها مسألة خطيرة جداً وإلا فإنه سيواجَه برد فعل عنيف من قبلها»!

لكنّ الإمام لم يكتف برفض التحذير المذكور فحسب، بل إنّه في اليوم المحدّد للخطاب، وبعد مهاجمته لائحة الحصانة وتبيانه لمخاطرها على استقلال وسيادة إيران، هاجم أيضاً أميركا ورئيسها بالذات بالقول:

«يا ليتني متُّ قبل هذا اليوم وما شاهدت مثل هذا العار لقد باعونا وباعوا استقلالنا...لقد داسوا كرامتنا وأذهبوا عزتنا...ألا تعلم الحكومة بأن هذه الاتفاقية تُنزل من قدر شعب إيران إلى درجة أدنى من درجة كلاب أمريكا...

فلو أن أحداً دهس كلباً أمريكيّاً بسيارته، فإنَّه سيكون عرضة للتحقيق وللملاحقة القضائية، حتى لو كان شاه إيران نفسه. بالمقابل، فلو دهس طباخ أمريكي شاه إيران نفسه أو أي رجل من كبار الشخصيات، فلا يمكن ملاحقته قضائياً!

لقد أدركوا جيداً بأنه مادام لعلماء الإسلام هذا النفوذ الشعبي الواسع، فإنَّهم لن يستطيعوا استعباد هذا الشعب وبيعه للإنكليز يوما وللأمريكيين يوماً آخر...

أيها الناس... إنني أنبّهكم إلى الخطر المحدق وأنبّه جيش إيران وأحذّر رجال السياسة والعلماء وأئمة الدين من عواقب الأمور...

وليعلم العالم وليعلم رئيس جمهورية أمريكا اليوم بأنه أقذر إنسان على وجه الأرض لدى الشعب الإيراني بسبب هذه الجريمة والمظالم التي أوقعها ويوقعها علينا...

إن معظم مصائبنا من أمريكا ومن إسرائيل التي هي جزء لا يتجزأ من أمريكا...

إنني أوجّه النداء إلى الطلبة وعلماء الدين والكَسَبة والتجار والعمال والفلاحين وقادة الدول الإسلاميّة وكافة الشعوب الحرة للتحرّك لفضح هذه المظالم. . .

وليعلم الجميع أنّ الفقر والإفلاس قد خيّم على الفلاّحين والتجار والمزارعين بسبب ما سمّوه بالإصلاح الزراعي الذي نفذه العملاء بما يفيد نموّ التجارة الأمريكية والإسرائيلية في إيران. . .»

- بتاريخ الحادي والعشرين من كانون الثاني 1965 قامت وحدة فدائية من أعضاء الهيئات الإسلاميّة المؤتلفة من السائرين على نهج انتفاضة العام 1963 ومنظمة فدائيي الإسلام بإعدام رئيس وزراء البلاد حسن علي منصور في عملية جسورة في العاصمة طهران؛ لكن النظام سرعان ما ألقى القبض على المجموعة بكاملها، وتم إعدام أربعة منهم، فيما حُكِم على الآخرين بأحكام لمدد طويلة، فتمت السيطرة على الانتفاضة مؤقتاً.

- ثم كان أوج السيطرة بإبعاد الإمام نفسه بتاريخ 5 اكتوبر 1965 من تركيا التي سبق أن أُبعِد إليها؛ ولكن هذه المرة إلى مدينة النجف الأشرف في العراق.

- وعلى الرغم من الأجواء غير المساعدة وكثرة الحساد والأصدقاء السذج والمتحجرين والذين لم يروا الإسلام إلا مجموعة معاملات فقهيّة وطقوس عبادية، كما يصفهم نجله الأصغر السيد أحمد الخميني، والذين كانوا يضعون العراقيل أمام استمرار نهضته بأشكال مختلفة، كما يقول ـ على الرغم من ذلك استثمر الإمام الخميني فرصة وجوده بين أوساط المسلمين الواسعة ليتخذ مواقف حازمة ومهمة وأساسية على طريق تنمية وتوسيع نهضة شعبه وبلاده، فأعلن مواقف جريئة

وشجاعة لم يسبق لها مثيل بدأت بالمواقف المبدئية والمسؤولة تجاه العدوان الصهيوني على البلاد العربية في حرب حزيران الشهيرة، ولم تنتهِ بلقاءاته العديدة والنوعية مع زعماء المنظمات الثورية الفلسطينية، وإرساله ممثلين عنه إلى لبنان. والأهم من ذلك كلّه فتواه التاريخية التي اعتبر فيها الدعم التسليحي والاقتصادي والمعنوي والقتال إلى جانب الثورة الفلسطينية والبلدان العربية التي تتعرّض للعدوان الإسرائيلي بمثابة واجب شرعي، وهو ما يمكن اعتباره نقلة نوعية لافتة ومثيرة في تاريخ علماء الدين الشيعة ومراجعهم!

- يقول السيد أحمد الخميني في الصفحة 31 من مقدمة كتاب «الكوثر»، وهو الكتاب الذي يؤرّخ لوقائع الثورة الإسلاميّة يقول حول منظمة «مجاهدي خلق» المسلّحة ما يلي:

«إن الإمام الخميني كان الشخص الوحيد الذي أدرك بنظرته الثاقبة منذ البداية انحرافات هذه المنظمة وشعاراتها الزائفة، فرغم مطالبة الكثيرين من أنصار الإمام المقربين إليه لتأييد هذه المنظمة، ورغم المفاوضات المطوّلة لموفدين من قبل المنظمة إلى النجف الأشرف، إلا أنّ ذلك كلّه لم يستطع تغيير موقف الإمام الحازم منهم...».

وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا الموقف جدير بالاهتمام؛ حيث إن هذه المنظمة، بالإضافة إلى مواقفها العقائدية المنحرفة، سلكت مسلكاً عنيفاً مع منافسيها كما مع رجال أمن النظام وهذا لم يكن مما يوافق المنهج السياسي العام الذي ظلّ يتّبعه الإمام على الدوام طوال حياته، ألا وهو الامتناع عن استخدام العنف والبندقية نحو الداخل لاسيما في حلّ النزاعات، أو كسب الرهانات النضالية، وأن كلّ البنادق يجب أن تتوجّه إلى المحتل والمستعمر الأجنبيّ وحده

وعند الضرورة القصوى للدفاع عن الانتفاضة الجماهيرية، وفي حالات الاضطرار الخاصة للدفاع عن النفس فقط، وهذا من صلب منهج «القومة» الشعبية مقابل منهج الكفاح النخبوي ونهج الاغتيالات الفردية!

- في شهر 10 من العام 1962 م يوجّه الإمام خطاباً من قم المقدّسة إلى الجماهير، كما إلى حكومة أسد الله عَلَم» حول لائحة منح «الحصانة» الشهيرة للمستشارين الأمركيين يقول فيها ما يلي:

«من المناسب لأولئك الذين يكتبون هذه المنشورات والبيانات، أن يلفتوا نظر المسؤولين إلى عدم تحدّي مشاعر الجماهير أكثر من هذا. إن علماء الإسلام قرّروا أن لا ينسحبوا من الميدان...

وإذا كان هؤلاء يتوهمون أنَّ الأمر سيفقد حيويته من خلال التسويف، فإنهم واهمون فالأمر ليس كذلك أبداً. إن الموضوع جدّي للغاية فالإسلام يتعرّض للخطر ولا يمكن لعلماء الإسلام أن يقفوا مكتوفي الأيدي...

إن هذه القضية لا تقتصر على علماء إيران، وإذا ما تقرّر في يوم من الأيام أن نواجه الحكومة بشكل عملي فإنّ الجمع الذي سيجتمع لنا سيضيق عنه هذا المكان، ولابدّ لنا حينها من أن نجتمع في الصحراء... نحن لسنا وحدنا فعلماء مصر واليمن وسائر أنحاء العالم الإسلاميّ شركاء معنا في هذه المواجهة»!

«... عليكم أن تتحلّوا بالاستقامة والثبات في جميع ممارساتكم، ونحن كذلك مرابطون والخطر الذي يهدّد الدين ليس مما يمكن غضّ الطرف عنه؛ لذا فإنّ على جميع المسلمين التحلّي بالجدية بتمام معناها حتى يتمّ القضاء على هذه الفتنة...»!

- بتاريخ 2 ديسمبر 1962 ألقى سماحته خطاباً في غاية الأهميّة يبيّن فيه مفهوم وشروط «القومة» وتحوّلاتها وظروفها في كلّ مرحلة تاريخية، إليكم مقاطع هامة منها:

«. . . إن سائر الأئمة المعصومين (ع) قاموا مع قلّة الناصر سعياً في إقامة الفرائض وتثبيت الأحكام، وبقي هذا ديدنهم حتى قتلوا ومن كان منهم لا يرى صلاحاً في القيام كان يلزم بيته ويمارس دوره في نشر الهدى، وهذا المنهج باتجاهيه هو السائد منذ صدر الإسلام حتى عصرنا هذا. ولسنا بعيدين عن عهد الميرزا الكبير المرحوم محمد حسن الشيرازي ذلك المفكّر العظيم الذي أقام في سامراء العراق، ففي حين كان يميل إلى الهدوء والإصلاح إلا أنّه حينما رأى الخطر يهدّد الإسلام، ورأى أن الملك الجائر - المقصود الملك القاجاري في زمانه - يريد أن يقضي على الإسلام بواسطة شركة أجنبية - المقصود شركة بريطانية أراد الملك أن يمنحها احتكار التبغ الإيراني خلافاً لرغبة شعبه - اضطرّ رغم شيخوخته وسُكناه في تلك المدينة الصغيرة، وحيث لم يكن حوله أكثر من ثلاثمائة من طلبة العلوم الدينية وقتها، أن ينصح السلطان المستبد ورسائله ما زالت محفوظة، لكن ذلك السلطان لم يُصْغِ لنصحه، مفضّلاً مواجهة ذلك الفاضل والعالم الجليل بعبارات نابيةٍ غير مؤدَّبة، ما اضطرّ المرجع الكبير إلى أن يقول كلمته ليعيد للبلاد استقلالها - المقصود فتواه الشهيرة في تحريم التبغ والتي أشعلت ثورة لم تنته إلّا برضوخ الملك وسقوط امتياز احتكار التبغ الشهير - !

والميرزا محمد تقي الشيرازي أيضاً عندما رأى أن العراق عرضة للخطر - المقصود أيام ثورة العشرين العراقية الشهيرة - فقد قال الرجل كلمته وآزره على ذلك أهل العراق فأعاد الحق إلى نصابه، ولولاه لمزّق العراق تماماً»!

نستنتج مما سبق أن الإمام الخميني يريد من خلال نقل هذه الوقائع المثبتة في سيرة علماء دين كبار ومرجعيّات مهمّة في تاريخ الطائفة، تأكيد أنّ النضال والكفاح التحرّري للشعوب ليس نزوة عند فرد ولا فورة غضب عند جماعة دينية أو وطنيّة، ولا مجموعة عمليات مسلحة تقوم بها خلايا ثورية متمرّدة هنا أو هناك، كما أنّ هذا الكفاح بالتأكيد ليس مجموعة عمليات اغتيال فردية أو جماعية إذا ما نفّذت ضد هذا الحاكم أو ذاك أو ضد زبانيته فان ذلك كفيل بإحداث عملية التغيير والإصلاح المطلوبة والمبتغاة بل إنّه في الواقع صيرورة فكرية اجتماعية سياسية نهضوية متكاملة، قد تأخذ أشكالاً متغيّرة بين مدّ وجذر إلى أن تحين ساعة الخلاص مع حلول ظروف مناسبة، وعندها ينبغي للقيادة وأتباعها أن يكونوا مستعدين للقيام بواجبهم تجاه شعبهم في إطار عملية تكامل للأدوار والمهمّات.

3

الخروج على المألوف والتجرّؤ على الموروث

لقد بدأ الإمام الخميني نهضته كرجل دين وسياسة في زمن كان فيه التديّن أمراً «يُعاب» عليه المرء، ويتردد الواحد منا في أن يجهر به، فيما كانت العلاقة بين الدين والسياسة مذمومة ومنبوذة بل «حراماً»، حتى بين أكثر رجال الدين تقدما وانفتاحاً، ولم يكن من المألوف لرجل الدين أن يتحدَّث في الأوضاع السياسية لبلده، أو أن يدلو بدلوه في شؤون الدول الأخرى، أو في العلاقات الدولية المحيطة ببلاده أو بإقليمه الذي ينتمي اليه، اللهمّ إلّا إذا وقعت واقعة كبرى أو وقع حدث جلل!

وكان المبرّر الجاهز دوماً لذلك الهروب أو التهرّب لدى غالبية أولئك الناس في الواقع، هو ذاك القول الشائع: «لعن الله السياسة والسياسيين فإنها لا أب ولا أم لها، وإنها ليست سوى مفسدة ونوع من الممارسة غير الأخلاقيَّة»! وإن تحدث أحدهم بها فالمسؤولية كبيرة عليه، ولا يتحمَّل أحد مصاحبة ذلك العالم «المسيّس»، بل إن من كان يذهب بعيداً في دهاليز السياسة كان يُعزَل ويُقاطَع وتُحرّض

عليه جماهير المؤمنين لمنعها ليس فقط من اتّباعه و«تقليده»، أي العمل بفتاواه بل وحتى منعهم من الصلاة خلفه، وهذا ما حصل مع الخميني بالذات عندما وصل إلى النجف الأشرف في العراق منفياً من بلاده، فقد حاول البعض ممّن يُحسبون على حصة السلطات الحاكمة، والذين اصطلحت الأمّة على وصفهم بوعّاظ السلاطين إخراجه من الملّة والدين؛ ولكن من دون جدوى!

وهذه المعاملة لم تكن حكراً على العلماء ورجال الدين، بل إن من كان يعمل من «المدنيين» المتديّنين في حقل السياسة، لاسيما إذا ما ظهر على الساحة بشكل مميّز ومحترف، فقد كان غالباً ما يُتّهم من جانب فئة واسعة من رجال الدين التقليديين و«الانتظاريين» بـ «الانحراف»، أو يقال عنه في المجالس إنّه «أخطر من اليساريين والشيوعيّين؛ لأنه يخلط الدين بالسياسة»، إلى ما هنالك من الاتهامات والمضايقات التي لا تُعدّ ولا تُحصى!

وهذا الأمر لم يكن ينحصر بموضوع السياسة فحسب، بل إنّ الفكر والتفكير الحرّ والإبداع في هذا المجال، واستخدام العقل والبحث العميق في قضايا الخلق والكون وفلسفة الوجود، ناهيك عن التطرّق إلى موضوعات مثل علم الكلام وعلوم المعرفة العرفانية وغيرها، كانت هي أيضاً من العلوم الحرام!

وتوسّع الحظر ليشمل كذلك العلاقة بين علوم الدين والدنيا، والاجتهاد في البحث عن المنظومة الواحدة التي ينبغي للمؤمن أن يقدّمها على قاعدة متينة من نسيج الفكر الديني للناس عامة، وللشباب بشكل خاص، وهو يخوض معركة تحدّي الفلسفات والأفكار الوضعيّة والماديّة عموماً، والتي كانت سائدة في خمسينيات وستينيات وسبعينيات القرن الماضي. فكلّ ما سبق ذكره من الأمور

المحرّمة على المتديّن عموماً، ورجل الدين بخاصة، لا سيما إذا كان من المراجع العِظام!

لنقرأ بهذا الصدد ما يقوله السيد أحمد الخميني أولاً بهذا الخصوص، ومن ثم نقرأ مقطعاً من رسالة للإمام نفسه ثانياً.

يقول السيد أحمد الخميني وهو يشرح الظروف المحيطة بنهضة والده الحزيرانية الأولى في بداية الستينات ما يلي:

«فيما كان الكثير من عناصر الشباب وتلاميذ الإمام الثوريين يدعمون الحركة ويناصرونها، كانت هناك عناصر كثيرة معروفة بنظرتها الطبقية في الأوساط الحوزوية (أي المدارس الدينية الخاصة التي تخرّج علماء الدين) غير قادرة على تفهّم تلك الحركة، فعملت على وضع العراقيل على طريقها بأشكال مختلفة.

إن هؤلاء كانوا يشكّلون تياراً واسعاً في الساحة ابتداء من المعارضين للفلسفة والعرفان، والمتظاهرين بالتنسك الذين يرون أن العمل في السياسة هو دون شأن العلماء! وانتهاء بجمعية الحجتيين والولايتيين (التسمية الأولى تعرف بانتظارها السلبي للحجّة المنتظر، وهو صاحب العصر والزمان والإمام الثاني عشر للشيعة، وهو الإمام الغائب المعروف بالمهدي المنتظر الذي يقول الشيعة بأنه سيظهر آخر الزمان ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما مُلئت ظلماً وجوراً، أما التسمية الثانية فهي تطلق على أولئك المفرطين والمغالين في ما يُسمى بالتشيّع الولائي، أي الولاء للإمام الأول لدى الشيعة أي الإمام علي بصورة استرخائية ومفرطة تمنع على المرء أي مجاهدة خاصة في الحياة)، **والذين كان كلّ منهم يضع علامات استفهام أمام أهداف الحركة (المقصود حركة الإمام الخميني الثورية) بشكل أو بآخر في الجلسات الخاصة والعامة، يضاف إليهم طلاب الدعة والراحة من الذين كانوا ينظرون إلى المرجعيّة والزعامة الدينية على**

أنها ليست سوى تقبيل الأيادي وكتابة الرسائل العملية، واستلام الحقوق الشرعية والذين كانوا يعتبرون نهضة الإمام عاملاً لإفساد أوضاعهم الشخصية المطلوبة عملياً، بالإضافة إلى أولئك الذين كانوا على علاقة بالنظام الملكي سواء بشكل رسمي أم من وراء الستار (ممن اصطُلح على تسميتهم بوعاظ السلاطين كما أسلفنا))»!

أما الإمام الخميني نفسه فيقول:

«مما لاشكّ فيه هو أن أكبر الجراحات التي تحمّلها العلماء المجاهدون قد جاءت من ذوي السلطة (المتنفذين من رجال الدين)، فلم تأت تُهم العمالة والافتراء على دين العلماء وتديّنهم من الأغيار فحسب، فقد كانت ولا تزال الضربات الموجهة إلينا من رجال الدين العاملين بغير وعي، ومن أولئك الذين كانوا يعملون بوعي منهم، أشد وأمضى علينا من ضربات الأغيار بكثير!

ففي بداية الكفاح الإسلاميّ، وكلما أردتَ أن تطرح مثلاً مقولة أن الملك خائن، كان يُردّ عليك بأن الملك شيعي! أو تأتي جماعة أخرى من المتظاهرين بالتنسّك من الرجعيين ليعتبروا أي عمل نقوم به حراماً، ولم يكن أحد يتجرأ على مناقشتهم، ووالله ما أوذي أبوكم الشيخ هذا (المقصود هنا هو الإمام نفسه) من قبل الآخرين بقدر ما أوذي على أيدي هذه الجماعة المتحجّرة!

فقد كان مثلاً تعلم اللّغات الأجنبية عندهم كفراً، والفلسفة والعرفان ذنباً وشِركا! حتى أن ولدي الصغير المرحوم مصطفى كلما كان يشرب من كوز الماء في المدرسة الفيضية (المدرسة الدينية الشهيرة في قم المقدّسة، والتي انطلقت منها الثورة في ما بعد بفضل مثابرة الإمام على النهضة)، كانوا يقومون بتطهير الكوز من ورائه؛ لأنني كنت أدرس الفلسفة... تصوروا!

لم تكن المواجهة في 5 حزيران من العام 1963 م (النهضة الأولى للأمام والتي قُمعت بشكل وحشي من المخابرات الإيرانية ـ السافاك ـ وبتعاون مفضوح مع المخابرات الأميركيّة والمستشارين الإسرائيليين من الموساد)، لم تكن مواجهة رصاص بنادق ورشاشات الملك فحسب، فلو كانت كذلك لهانت المواجهة، بل إنها كانت علاوة على ذلك مواجهة رصاص الحيل والخداع والتظاهر بالتنسك والتحجر، ورصاص الشماتة والافتراء من داخل جبهتنا، وهو ما كان يحرق ويشق القلب والروح أكثر من البارود والرصاص الحيّ بألف مرة. . . . حقاً أن العلماء المخلصين كانوا في وحدتهم وغربتهم يبكون دما»!

(من مقدمة كتاب «الكوثر» بقلم السيد أحمد الخميني والذي يتضمّن تسجيلاً لوقائع الثورة الإسلاميّة عبر عرض أهم مجموعة من خطابات الإمام الخميني).

ولكن كيف بدا الخروج على المألوف في أبرز وأسطع مظاهره في رسائل الإمام أثناء ممارسته للسياسة والحكم؟ فلنتتبع صاحب الرسائل في بعض ما أدلى به على سبيل المثال لا الحصر:

في الرسالة الأولى:

وهي موجّهة إلى رئيس جمهورية الوقت السيد علي الخامنئي، حيث يقول له فيها:

«. . .لم أكن أتمنى أن أدخل في المناقشات الجارية في مثل هذه المواقع الحساسة، واعتقادي هو أن السكوت في مثل هذه المواقع هي الطريقة الأفضل (وقتها كان النقاش يدور حامياً بين مختلف المستويات الحكومية حول وضع قانون للعمل والعمال، وانقسمت خلاله الطبقة الحاكمة بين بسط يد الحاكم في التشريع

لصالح العمال، حتى لو بدا ذلك مخالفاً في الظاهر مع بعض التراث الفقهيّ التقليديّ بهذا الخصوص، وبين معارض له بحجة ان ولاية الفقيه أيا تكن مدى صلاحياتها لا يحق لها ان تصطدم بنصوص فقهية شهيرة ومعروفة)، **وبالطبع فإننا (أي نحن المسؤولين والعلماء) لا يجوز لنا أن نتصور أنّ كلّ ما نقوله أو نفعله هو من الامور غير القابلة للانتقاد، إن الانتقاد بل حتى الدحض إنما هو هدية إلهيّة من أجل تنمية ورُشد البشر. . . !**

إن ما يبدو على الظاهر مما ورد من كلام جنابكم في صلاة الجمعة هو أنكم لا تعتقدون بصحة القول القائل بأن نظام الحكم والدولة بمفهوم ولاية الفقيه المطلقة والتي منحت صلاحيتها من الله إلى النبي الأكرم ـ(ص) ـ بأنه هو من أهم الأحكام الألهيّة، بل إنه يتقدّم على جميع الأحكام الشرعية الإلهيّة. وتعبيركم عن أنني قلت إنَّ صلاحيات نظام الحكم والدولة هي في إطار الأحكام الفرعية الإلهيّة إنما هو خلافاً لما ورد من أقوالي بهذا الخصوص. فإذا كانت صلاحيات نظام الحكم والدولة في إطار الأحكام الفرعية الإلهيّة، فإنه يصبح وقتها مثل ذلك الحكم الإلهي والولاية المطلقة المفوضة لنبيّ الإسلام ـ(ص) ـ ليس سوى ظاهرة لا معنى لها ومنزوعة من أي مضمون. . .

إن عليّ أن أوضح لكم أنَّ نظام الحكم والدولة والذي هو شعبة من شعب الولاية المطلقة لرسول الله ـ(ص) ـ وهي من الأحكام الأولية للإسلام، ومقدمة على كافة الأحكام الفرعيّة حتى الصلاة والصوم والحج. وبالتالي، فإنَّ الحاكم باستطاعته تخريب مسجد أو منزل ما إذا كان موقعه مانعاً لبناء «أوتوستراد» ضروري ـ على أن يدفع لصاحب المنزل ما يساوي قيمته ـ، وإنّ الحاكم يستطيع أن يعطّل المساجد عند الضرورة. . .بل إن الدولة تستطيع إلغاء العقود

الشرعية التي عقدتها هي نفسها مع الناس من طرف واحد عندما ترى أنّ فيها ما ينافي المصلحة العامة للبلاد والإسلام!

بل إنها تستطيع أن تمنع أو تُعرقل أيَّة ممارسة عبادية أو غير عبادية ما دامت تنزل الضرر بالمصالح العامة للإسلام والبلاد. وإن الدولة تستطيع، حتى منع الحج وهو من الفرائض الإلهيّة المهمة في الظروف التي ترى فيها أن المصالح العامة للبلد الإسلاميّ تتطلب تعطيلاً مؤقتاً لتلك الفريضة!

. . . إنَّ ما قيل ويقال حتى الآن بهذا الخصوص إنّما هو دليل على عدم المعرفة بولاية الفقيه الإلهيّة المطلقة. . . ثمة أمور أعلى وأكثر أهميّة تحتاج إلى مزيد من التعمّق والتبصر لن أزاحمكم فيها في الوقت الراهن. . . حفظ الله أمثال جنابكم برعايته لخدمة الإسلام حيث لا ترجون سواه».

إنها في الواقع رسالة عجيبة بكل معنى الكلمة، بل هي زلزال في المفاهيم التقليدية التي كانت سائدة حول نظرية الدولة ونظام الحكم، حتى بين أولئك المؤمنين بنظرية ولاية الفقيه بمن فيهم أقرب المقربين من الإمام المؤسس، والدليل على ذلك رسالته المشار إليها أعلاه والموجّهة إلى واحد من رموز النظام الحاكم والتي كان بإمكانها أن تقدّم إلى أي واحد آخر من نظرائه لو كان في موقعه.

وبعيداً عن الاختلافات أو المناقشات التي كانت سائدة آنذاك بخصوص الموافقين والمخالفين لمقولة رئيس الجمهورية وقتها، والذي كان على خلاف مع رئيس الحكومة آنذاك حول تفسير صلاحيات الحاكم ومدياتها، إلا أنّ ما يذهب الإمام إليه في رسالته أعلاه هو أبعد مما كان محصوراً في مناقشات ذلك العصر، وهو الأمر الذي ربما لا يزال غير متصور أو مُستوعَب لكثير من رموز الثورة والحكم في إيران وبالتأكيد خارج إيران أيضاً!

ففي القراءة التي يقدّمها الإمام هنا عن صلاحية الولي الفقيه الحاكم خروج على المألوف في كلّ شيء معروف أو متعارف عليه في فهم صلاحيات الحاكم ورئيس الدولة تقريباً!

- فالإمام هنا يعتبر الدولة من الأحكام الأولية في الإسلام بعدما كانت حتى الأمس القريب، ليست سوى وسيلة ثانوية اضطرارية يلجأ إليها العلماء عند الضرورة، من أجل حماية بعض تشريعات الإسلام العامة، أو تعاليم الدين الضرورية الخاصة بالغيب والفقه وبعض المعاملات الشخصية، أو منبراً للدعوة إليه هذا إذا اعترفوا أصلاً وأقرّوا بضرورة العمل الحكومي!

- والإمام هنا يضع الدولة فوق كلّ اعتبار، حتى اعتبارات تطبيق الشريعة إذا ما تعارض ذلك مع مصالح البلاد الإسلاميّة، أو مصالح الحكم، أو مصالح الإسلام العامة!

- والإمام هنا يقدّم نظرية تقدّمية راقية لم يسبقه إليها أي حاكم وضعي فكيف بحاكم ديني، وهي أن ما يجعل أي أمر ضرورياً أو مطلوباً أو مشروعاً، إنما هو المصلحة العامة للناس بطبقاتهم المختلفة والمتنوعة والذين يشكلون برأيه عماد قيام الدولة ونظام الحكم، وليس رؤية هذا المجتهد أو ذاك من علماء الدين أو المسؤولين!

بمعنى آخر، هو هنا يُطَبِّق مقولتي «لا ضرر ولا ضرار»، و«ما حكم به الشرع حكم به العقل والعكس صحيح»، وهي من المقولات المتروكة والفرائض الغائبة على الأقل في ذلك العصر والزمان الذي كان فيه الإمام لايزال يُؤَسّس للقراءة الجديدة والإصلاحيّة المتجددة للإسلام.

إن هذه الثلاثية الآنفة الذكر في منظومة الحكم وقيام الدولة،

بإمكانها أن تقدّم أرضية اجتهادية قابلة للتطوير والتحوّل العلمي في باب الحكم والحكومة، ليس عند المسلمين فحسب، بل ولدى عموم المتدينين أيضاً، كما بإمكانها أن تساهم في بناء العلاقة النموذج بين المواطن والدولة العصرية بما لايخطر على بال أحد من علماء السياسة أو الاجتماع حتى من عُتاة الليبراليّين والعلمانيّين حتى الآن!

فالجمع هنا بين إطلاق يد الفقيه في ممارسة الحكم خلافاً للسائد من الرؤية بأنّه لم يُخْلَق لممارسة السياسة، أو ليس من شأنه التعامل بالسياسة، كما جاء في فصل سابق في الكتاب، وبين تقييده كمرجع ديني أو تقييد نظرته الفقهيّة التقليدية للشريعة وللناس وللحكم بقاعدة المصالح العامة، ليس بالأمر الهَيِّن مطلقاً، إن لم يكن انقلاباً في المفهومين التقليدي والثوري للحكم الديني على السواء!

فالنظرة التقليدية المتعارف عليها لرجل الدين تقضي بأنَّه مكلّف بتقديم نظرة دينية أو فقهيّة عامة للحياة هي أشبه بالتعليمات الأخلاقية العامة، منها إلى أي شيء آخر. وبالتالي، فهو غير معني بالحكم ولا بأنظمته ولا بالدولة ولا بشؤونها المنحصرة بمجموعة من الساسة المتخصّصين والذين يُسمّون اصطلاحاً برجال السياسة أو رجال الدولة، والذين عادة ما يصولون ويجولون في صالونات وأروقة الحكم من دون أيّ وأزع أخلاقي بحجة أنَّ ما لله لله وما لقيصر لقيصر، بينما سرعان ما نكتشف بأن المقصود هو أنّ ما لله لقيصر وما لقيصر يجب أن يذهب لقيصر وحده أيضاً! كيف ذلك؟!

ذلك لأنَّ الناس لهم دينهم على امتداد الحياة، ولن يستطيع أحد سلبهم إياه، فيأتي الحاكم بعد أن يتمكّن من السلطة دافعاً رجل الدين أولا إلى الزوايا والتكايا والمساجد والحسينيات و. . . إلى أن يستولي على دين الناس ليوظفه في خدمة نظام الحكم ومصالح الدولة التي يمثّلها أو يترأسها!

أما النظرة الدينية الثورية المتعارف عليها لدى الناس، فإنها سرعان ما تظهر على صورة تفسيرات أيديولوجيّة للدين منحصرة في تفسير أو تأويل أو قراءة هذا العالم الديني أو ذاك، فتحاصر الدولة ونظام الحكم وتحصره بدين رسمي يُقدّم من على منبر الدولة باعتباره هو التفسير الوحيد القادر أو المطلوب في الإدارة والحكم وما على الناس إلّا اتّباعه من أجل الوصول إلى السعادة الدنيويّة والأخرويّة!

في المقابل، إنَّ الإمام الخميني هنا يتجرّأ على كسر الحواجز التقليديّة في الاتجاهين، فلا يقبل برَجُلِ دينٍ قاعدٍ لا ينشغل إلّا بفقه الحيض والنفاس وأمور الحسبة العامة، ولا برجل دين يسيطر على أجهزة الحكم والدولة لمصلحة جماعته أو فرقته الدينية، بل يضع المصلحة العامة للناس والبلاد والدين كنظام للحياة فوق كلّ اعتبار بما فيه اعتبار شخصية الحاكم نفسه!

في الرسالة الثانية:

وهي موجهة إلى مدير مكتب استفتاءاته حجة الإسلام محمد حسن قديري رداً على رسالة منه إليه يستغرب فيها أمرين، الأول تحليله للموسيقى، والثاني ممارسة لعبة الشطرنج، فلنقرأ سويّة:

«... قبل أن أجيبك حول سؤالَيْ وجوابَيْ الاستفتاء أجد من الضروري أن أبرز لك أسفي حول طرقة تلقّيك وطريقة فهمك للأخبار والأحكام الإلهيّة، فحسب ما تتفضّل به فإن الزكاة لا تُصرف إلّا للفقراء وسائر الموارد التي جرى ذكرها، في الوقت الذي أصبحت فيه موارد صرفها بالمئات، وأنّ «تحريم» الرهان مختص بسبق الخيل والرماية بالرمح والنشاب وأمثال ذلك مما كان متعارفاً عليه في الحروب من وسائل في الأيام الخوالي. وإنّ الأنفال التي حُلّلت للشيعة يوماً فإنّ الشيعة اليوم يستطيعون مثلاً أن يبيدوا المراتع

والغابات بسياراتهم الفاخرة والفارهة دون أي مانع، وأن يتسبّبوا في تدمير البيئة، ويعرّضوا سلامتها للخطر كما يعرّضون أرواح الملايين من الناس للخطر، من دون أن يحق لأحد أن يتعرّض لهم؟!

كما أن لا أحد يحقّ له مثلاً أن يتعرّض للمنازل أو المساجد التي تشكّل عائقاً أمام تخطيط المدن والطرق العامة، وأمثال ذلك من القضايا. وكما أفهم منك، فإنَّك بالإجمال ترى أن المدنية الجديدة ينبغي أن تُهدم تماماً وأن نعود من جديد إلى زمن العيش في الأكواخ، أو أن نعيش دائماً في الصحراء.

وأمّا حول ما ورد من استغراب من جانبك حول شكل سؤال السائل ومضمون جوابي، فإنني إذ أتعجب لطريقة فهمك واستنتاجاتك، فإنني لم أكن أتوقّع من جنابك وأنت المتعلّم والكادح كيف تتشكّل عندك مثل هذه الأفكار والانطباعات وكيف تنسبها إلى الإسلام؟! وأنت تعرف أنني إذ أعزّك وأقدّرك وأعتبرك مفيداً؛ لكنني أنصحك نصيحة أبوية بأن تسعى لإرضاء ربك فقط، ولا تأخذ غيره بعين الاعتبار، وأن لا تقع تحت تأثير أشباه المقدّسين والمتظاهرين بالتقدّس ورجال الدين الأميّين؛ ذلك لأنَّه إذا كان من المتوقّع من خلال النشر والإعلان الصريح لأحكام الله أن تتزلزل مواقعنا لدى أولئك الحمقى من المتظاهرين بالتقدّس ورجال الدين الأميّين، فأقول لك بصراحة فلتتزلزل مواقعنا تلك أكثر فأكثر، أتمنَّى من الله تبارك وتعالى لجنابكم كما في الماضي التوفيق في خدمة الإسلام والمسلمين والسلام عليكم ورحمة الله».

وهنا كما في الرسالة السابقة يتبيّن بوضوح كم هي المسافة الفاصلة بين هذا العالم الرباني الاستثنائي، ولكنه «الدنيوي» أيضاً بالقوّة نفسها؛ أي المحب والعاشق للحياة كأنها دائمة له أبداً، والمستعد للآخرة كأنها قادمة له غداً، وبين سائر أقرانه من رجال

الدين الذين اعتادوا على المدرسة النمطيّة ليس فقط في استذكار واستعادة ما نشره وكتبه السلف من تفسيرات وتحريرات بل وحتى من اجتهادات، وإن وصفت بعضها بالجسورة لكنها لم تخرج إطلاقاً عن المألوف من التفكير والاستنباط، وعدم التجرّؤ على ما هو مشهور ومتفق عليه من قبل كبار علماء الدين والمراجع!

وإذ كان الخميني يوجّه ردوده في رسالته إلى مدير مكتبه للاستفتاء، بسبب ما وصفه بانشغالاته اليومية لمتابعة أمور الدولة ما منعه من الانكباب والتبحّر درساً وبحثاً في الأمور الفكريّة والفقهيّة لا سيما فقه الحياة، يُظهِر في ثنايا ما سطّره في الرسالة، حسرته تلك التي ظلّت ملاحقة له حتى الرمق الأخير من حياته، ألا وهي أن يخرج «متحرراً» من «عباءة الفقيه وخرقة العارف»، كما كان يقول في شعره المنظوم الذي نُشِر بعد مماته. وهو يتحسّر لا لشيء إلاّ ليدلي حول ما جرى للدين وللتديّن والفكر والتفكير والتدبّر في أمور الدنيا والآخرة على يد الصديق قبل الخصم والعدو، في ميدان الكفاح من أجل انتزاع حقّ الحياة للمتديّنين وأصحاب الضمائر الحيّة من المفكّرين في عالم تقاسمت فيه سُبُل الخديعة والتضليل والتخدير قوى الشيطنة «المدنية» والمتحجرة «الدينية» من أشباه الساسة وأشباه المتدينين والمتنسكّين، كما كان يفضّل أن يسميهم!

صحيح أنها رسالة مختصرة؛ لكنّها تبيّن بعمق حالة الغربة التي كان يعيشها الإمام المصلح والمتحرّر مع سلك رجال الدين التقليديين الذين لم يكتفوا بمحاصرته قبل انتصاره على الطاغوت، بل ظلّوا على محاصرته بعد استلامه للحكم، وكانوا يُفتون جهاراً نهاراً بحرمة الاستماع إلى برامج التلفزيون الناطق باسم جمهوريته مرة بحجة الموسيقى، وثانية بحجة التحلّل والفساد الأخلاقي وظهور المرأة غير مكتملة الحجاب هنا أو هناك، ودائماً بحجة الخروج على المشهور

والمعروف والمألوف من تفاسير واجتهادات واستباط أو قراءات العلماء من الرعيل الأول!

ولا ريب في أنّ من هو مثل الإمام لا يقدّر أولئك ولا يحترمهم، ويستطيع أن يميّز بين زمن وزمن، نعم «زمن كان فيه كتاب ما متناسباً مع ذوق عصر من العصور ومنسجماً مع مستواه الفكري ويصلح كتاب هداية للناس؛ فإذا به يصبح في وقت آخر سبباً لضلالهم! عدا الكتاب السماوي الخالد بالطبع» كما جاء في كتيب «إحياء الفكر الديني» لفيلسوف الثورة الكبير وتلميذ الإمام العظيم آية الله الشيخ مرتضى مطهّري.

4

سلاح المظلوميّة وانتصار الدم على السيف

لم يعرف العالم قائداً أو زعيماً مثل الإمام روح الله الموسوي الخميني، ناضل وكافح من أجل قضية شعبه باستقامة وإصرار مسكونين بالأمل الدائم والعنفوان المشبع بالاطمئنان الكامل بالانتصار، رغم قلّة الإمكانات وتفرّق النُخب وأهل صنفه من حوله، ومن حول منهجه وعيشه الطويل في غربته الفكريّة كانت أو الجغرافيّة التي زادته غربة في ما بعد.

ومع ذلك لم يهن الإمام يوماً ولم يحزن، ناهيك عن أنه لم يتراجع أو يرتخ أو يتردّد، ولو للحظة عن اليقين بقدوم النصر لامحالة، وتحقق أهداف الإصلاح والتغيير والنجاح في الثورة، ما دام هو مصمماً على اكتساب قلوب الجماهير واحتلالها، والقتال بها ومنها ومن أجلها للإطاحة بقصور الطواغيت وممارساتها غير الشرعيّة والمعادية للعدل والحرّية والتحرّر!

وليس صحيحاً ما رُوّج طوال فترة حكم ذلك الرجل العظيم عن أنّه رجل عنف وثورة ودماء وقتل واقتتال... ومن أجل غايات

وأهداف دنيويّة وسلطويّة بحتة!! حاشا فإن آخر من تنطبق عليه مثل هذه التهم والأباطيل هو الإمام روح الله الموسوي الخميني.

نعم إنه رجل ثبات على المبادئ، ورجل قيام وتحرّر وانتفاض على الظلم، لايعرف السكينة ولا الهدوء ولا الراحة مادام الظلم جارياً؛ لكنه في الوقت عينه رجل عقل وحكمة ودراية، يعرف كيف يوظف الحشود ومتى يحرّكها، وبأي ثمن وضمن أيّة معادلة ناجحة. إنه صاحب فن القيام بأقل الأثمان ولكن بأضمن النتائج، وسلاحه في ذلك كلّه وسرّ كلمته الذي لا يخطئ، هو حماية الوحدة الوطنية وتوظيف المظلوميّة في معادلته الشهيرة: انتصار الدم على السيف!

مع الإمام في رسائله المعبّرة والخالدة بهذا الخصوص:

الرسالة الأولى:

في الثاني من ديسمبر من العام 1962، وفي خطبة له أمام جمع من العلماء والفضلاء وأهالي مدينة قم المقدّسة بعد فشل مخطّط رئيس وزراء الشاه أسد الله علم بخصوص ما عُرِف بمشروع انتخابات مجالس الولايات والمحافظات المزيّفة، قال:

«الموضوع انتهى بحمد الله، وقد تنبّه السيد أسد الله علم إلى ضرورة إنهائه ونحن بدورنا نثمّن تلك النهاية التي حصلت دون قتال أو نزاع وبدون إراقة قطرة دم واحدة؛ حيث لم يصفع حتى وجه أحد في هذه القضية التي رافقها قيام شعبي عظيم لعشرين مليونا من الناس، فكيف حصل ذلك؟!

إن الحكومة لا تعلم ما هو السبب... لقد جاءنا البعض بعيون باكية يريدون منا ضمان حقّانية موتهم وحسبانهم في عداد الشهداء يوم القيامة... وكانوا يقولون لنا عندها سترون ما سيحدث؟! قلنا لهم نحن لسنا أهل هذا الكلام ـ أي النزول إلى المجابهة الدامية ـ

وكان يكفي أن تصدر كلمة واحدة منا حتى تروا شدة الانفجار. . . لماذا لاتريد الحكومة تصديق ذلك والاعتراف به؟! ولماذا هي مصرّة على تحطيم هذا الظهير؟!

لماذا يصرّون بكلّ ما أوتوا من قوة على تدمير هذه القوّة العظيمة الداعمة للاستقلال؟! لماذا لا يستندون إلى العلماء؟! ألا يتساءلون لماذا تنقبض قلوب الناس والعالم كله لوفاة العالِم، في حين تحتفل الناس بهزيمة الحكومة؟! إن الناس يا سادة لو يعلمون أنَّ الحكومة تعمل لصالح المسلمين فسيقدّمون القروض الشعبية، ويبيعون حتى بيوتهم لمساعدتها من أجل تحقيق مصالح المسلمين!

إنني أنصح حتى الملك، بأن لا يفرّط بهذا الظهير وبهذه القوّة!

وأنصحه بأن لا يقول: وما شأننا نحن بالعلماء؛ لأن العالِم له شأن معك!

على العلماء تقديم نُصحهم للجميع بدءاً من الملك وانتهاءً بالحاضرين فالنصيحة من الواجبات ولعلّ تركها من الكبائر!

وهذا هو سبيل امتلاك قلوب الناس، فقلوب الجماهير المسلمة تُمتَلك بالسلام، ونحن من جهتنا أدركنا ما يؤثّر فيهم، فقلوب المسلمين تُستمال بالسلام وبذكر الله وبذكره تطمئن القلوب، لا أقول للحاكم ضع عمامة بالضرورة على رأسك بل أقول تفهّم وافهم أنت كذلك ما فهمه عالم الدين، وسترى النتائج!

أيتها الحكومات أيها الأشقياء، إن فتح البلدان ليس بشيء يُذكر، وهو أيضاً ما لا تقدرون عليه والحمد، بل إن فتح القلوب هو المهم!

فإن أردتم الفلاح فبادروا إلى ذلك، وإن لم تريدوا فهذا شأنكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته!»

فلندقّق جليّاً ولنتْمل ملياً في ما يقوله الرجل عن الناس وعن أهمية تحركها الجماهيري السلمي أولاً، ومن ثم عن أهمية احتلال القلوب وليس البلدان أو المؤسّسات ومقاعد السلطة هنا أو هناك، وكذلك عن أهمية قطرة الدم الواحدة التي تُسال من دماء الناس، وكيف أنّها عزيزة على قلب رجل الإصلاح والقومة الشعبية أكثر من أيّ شيء آخر.

إنّه الرهان على الحركة الانسيابيّة للناس وبمقاديرها الطبيعية، إنه الرهان على الزمن وكيف أن بإمكانه أن يحوّل القلوب والأحوال من حال إلى حال!

إنه منهج نبذ العنف من أجل العنف، ومنهج الفتك الذي لن يأتي بالتغيير الجذريّ والمطلوب!

إنه منهج الرهان على مقولة التراكم الضرورية لحصول التغيير والإصلاح!

الرسالة الثانية:

وهي واحدة من أهم وأدقّ وأخطر الوثائق، في ما يخص الفارق بين نهج الرجل المسؤول الذي نحن بصدد التأريخ والتوثيق له، وبين أقرانه وزملائه ممن خذلوه أو تقاعسوا أو تخلّفوا عن رَكبه من العلماء والمراجع الكبار، أو أولئك الذين لم يُدركوا أهميّة توظيف الحالة الجماهيرية ومظلوميّتها في اللحظة التأريخيّة المناسبة!

ولنقرأ سويّة الحوار التالي بين سماحة الإمام الخميني الواصل لتوّه إلى النجف الأشرف في العراق منفياً من بلده إيران، وهو الذي لا ظهير له بين أوساط رجال الدين وجمهورهم في البلدان الإسلاميّة، والذي كان يعاني الغربة وقلّة الحيلة والناصر والمعين،

وبين المرجع الأعلى للطائفة الشيعية في العالم وقتها وهو الإمام آية الله العظمى السيد محسن الحكيم، كما ورد نصاً في كتاب «الكوثر» الشهير الذي يؤرخ لثورة الإمام الخميني، وهي كالآتي:

*«**الإمام الخميني**: حبّذا لوقمتم بزيارة استجمام إلى إيران، واطّلعتم خلالها على الأوضاع عن كثب، وشاهدتم بأعينكم ماذا يمرّ على هذا الشعب المسلم.*

كنت أعتقد في زمان المرحوم البروجردي بأن عدم مبادرته للقيام ضد الحكومة المتجبّرة لا شائبة عليه؛ إذ إنّ المحيطين به لا ينقلون الأحداث له، وأعتقد الآن بأن الأمر هو كذلك بالنسبة إلى سماحتكم، حيث يبدو أنهم لا ينقلون لكم فجائع الحكومة الإيرانية، وإلا لما سكتّم؟!

***آية الله الحكيم**: ما دمتم قد وصلتم أنتم إلى هنا الآن، فلا مناسبة للذهاب إلى إيران. ثم ماذا يمكن أن تؤدي إليه رحلتي إلى هناك، وما هو الأثر الذي سيترتب على ذلك.*

***الإمام**: لاشك في أن زيارتكم سيترتّب عليها أثر ما، لقد ردعنا الحكومة عن إصدار القرارات الخطيرة بهذا النوع من القيام، كيف لا يكون لذلك أثر؟ لو كان العلماء متّحدين لأثّر ذلك قطعاً.*

***السيد الحكيم**: إذا كان في ذلك احتمال عقلائي، ثم التحرك على أساس عقلائي، فلا بأس.*

***الإمام**: لا شك في أن لذلك تأثيره، وقد رأينا أثره نحن، كما أننا نقصد بالعمل هو العمل العقلائي، فالعمل غير العقلائي ليس مطروحا أساساً. مقصودنا هو عمل العلماء والعقلاء من أبناء الشعب.*

السيد الحكيم: إذا تحركنا بحدة فإنّ الناس لا تتبعنا فهم غالبًا لا يعرّضون أرواحهم للخطر في سبيل الدين.

الإمام: لقد ذكرت لكم أنَّ الناس أثبتوا شجاعتهم وصدقهم في الخامس من حزيران (المقصود انتفاضة إيران الشعبية الشهيرة الأولى في بداية الستينات والتي قصمت ظهر الشاه).

السيد الحكيم: لو ثُرنا ونزف أحدهم دماً، لحصلت ضجة كبرى ولشتمنا الناس وأثاروا الفوضى.

الإمام: حين ثرنا لم نرَ من أحد غير مزيد من الاحترام والسلام وتقبيل اليد. بل إن كلّ من قصّر في تلك الحركة سمع كلاماً بارداً، وواجهه الناس بالإعراض.

في تركيا عندما ذهبت إلى إحدى القرى ـ لا أتذكر اسمها الآن ـ وقال لي أهلها إنّ العلماء، أيام كان أتاتورك ممعناً في عدائه للدين، اجتمعوا وتحركوا ضد قراراته، فقام بمحاصرة القرية وقتل أربعين من كبار علمائهم، فخجلت وفكّرت مع نفسي وقلت كيف قام هؤلاء العلماء من أبناء السنّة الكرام، حينما رأوا الخطر يتهدّد الدين الإسلاميّ، وقدموا أربعين قتيلاً، في حين لم ينزف من أي عالم من علماء الشيعة ولا حتى قطرة دم من أنفه، لا من أنفي أنا، ولا من أنفكم أنتم ولا من أنف أحد آخر، في الوقت الذي يتعرّض فيه ديننا إلى هذا الخطر الكبير ـ الذي تعرفه ـ حقيقة إن الأمر ليبعث على الخجل!

السيد الحكيم: ماذا يجب عمله؟ يجب أن نتوقّع تحقّق أثر لتحرّكنا. فما هو الأثر المترتب يا ترى على تقديم القتلى؟

الإمام: إن الممارسات المضادّة للدين على نوعين، أحدهما من سنخ ما كان يقوم به رضا خان ـ والد شاه عصر الإمام ـ والذي

كان يتحرّك على أساس غير ديني ويقول أنا أفعل! ولا ينسب أعماله إلى الشرع، وطبيعي أن يكون العمل ضدّه من باب النهي عن المنكر. أما الملك الحالي، فإنه يتحرّك ويقوم بممارساته المضادة للقرآن والدين على أساس أنها من الدين، كما يصرّح هو ويقول، ويدّعي أن ذلك هو رأي القرآن، وأنه يستند في أعماله إلى القرآن الكريم. وهذه بدعة كبيرة توجّه لطمة لا يمكن تحميلها للدين. وبالتالي، فإنه ينبغي علينا أن نضحّي، ونجعل التاريخ يكتب ويسجّل ويشهد بأن عدداً من علماء الشيعة ثاروا عندما تعرض الدين إلى خطر ما، وأن عدداً منهم قُتل.

***السيد الحكيم**: ما هي فائدة التاريخ؟ ينبغي أن يكون لتحرّكنا أثر آني -*

***الإمام**: كيف لا يُفيد؟ ألم تقدم ثورة الحسين بن علي (ع) خدمة مؤثّرة عبر التاريخ؟ أولم نستفد من ثورة ذلك الإمام؟*

***السيد الحكيم**: ما رأيك بالإمام الحسن؟ فإنه لم يثُر؟*

***الإمام**: لو كان للإمام الحسن أنصار ومريدون بعدد ما لديكم لما توانى عن الثورة. وقد ثار في أول الأمر. وحينما رأى أنصاره يتفرّقون عنه توقّف عن القيام، أما أنتم فلديكم مقلّدون وأنصار منتشرون في كافة أنحاء البلدان الإسلاميّة.*

***السيد الحكيم**: إنني لا أرى أن هناك من سيتبعني إذا قمت بحركة ما.*

***الإمام**: إعملوا أنتم وثوروا، وأنا أول شخص سيتبعكم!*

***السيد الحكيم**: تبسّم وسكوت!*

إنّها المسافة الفاصلة بين منهجين، المنهج الذي يراهن على الناس والكتل الجماهيرية الكبرى، ويعتبرها الناصرة والمنتصرة في

النهاية بسلاح مظلوميّتها وبوحدة صفوفها بوجه الطغاة والجبابرة، وبين المراهنين على طيّ الزمان بالراحة والاستكانة وانتظار الفرج، ويا حبذا لو يأتي في زمان غير زماننا كما كان لسان حال أكثرية الذين حاصروا الإمام الثائر في منفاه، كما يؤرخ تلامذته وينقلون عنه باعتبارهم شهوداً على عصر الجفاء والتحجّر والتشبّه بالمتنسكين والمتّقين هروباً من مسؤوليات الإصلاح والتغيير العملي!

وقد كان الإمام الثائر محاصراً بين أقرانه وهو يدعوهم إلى عدم إثارة الخلاف أو الوقوع في أفخاخ الفرقة بين العلماء حتى لا تضيع هيبتهم، لكنه كان يردّد في الوقت نفسه بين حوارييه وتلامذته ما ينقله نجله الأصغر في كتاب التاريخ الشهير «الكوثر» حيث يقول:

«إن الحكومات إذا ما كانت تخاف من أحد العلماء أو أحد المراجع، فإنّها لا تخاف من دعائه، ولا تخاف من لعناته التي يصبّها عليهم، ومتى كان لديها اعتقاد بالدعاء واللعن أصلاً؟! إنها عندما تخاف انما تخاف من الشعوب!».

إنّها المظلوميّة وسلاحها الصائب والمسدّد، وانه الدم الذي يتحدّى السيف، ومن ثم هذا المزيج العجيب والدواء السحري الفريد من الاثنين الذي قهر كلّ خصوم وأعداء الزعيم الثائر والإمام القائد المصمم على الإصلاح والتغيير وإخراج الأمّة من السكون والركود والاستكانة وقبول المهانة والذل، إلى ساحات العمل المفتوحة على مسارح الابداع والابتكار والجهد الجماهيري الجبار!

وسلاح المظلوميّة هذا بالمناسبة هو المادة التصديرية الأولى التي استطاع الإمام الخميني عملياً نقلها وبشكل سلس إلى كثير من الشعوب المقهورة في العالم، وبتحديد أكثر إلى كلّ من لبنان وفلسطين؛ حيث استطاع تلامذته والسائرون على نهجه في الساحتين المذكورتين، استثمار مثل هذا السلاح الفتاك بالعدو، والجامع

للوحدة الداخلية، والملهم لحركة التضامن العالمية من حولهما، بصورة مبدعة ونافذة في الصميم، ما جعل العدو يقف حائراً أمام هذا السلاح الجديد.

فالمظلوميّة اليوم أشبه ما تكون بمواطنة عالمية تجمع كلّ أحرار العالم، ليس فقط حول المعاناة الإنسانية للشعوب المضطهدة والمقهورة، بل إنها ارتقت لتصل إلى حدّ جذب الثوار والمتمرّدين على النظام العالمي الجائر من أجل الدفاع عن حق المقاومة والحقّ بالعمليات الاستشهادية، وهو ما رأيناه في تضامن نواب ووزراء سابقين ورؤساء بلديات عواصم أوروبية مع العمل الفدائي الفلسطيني، كما حصل مع عمدة لندن السابق وعدد من النواب البريطانيين ووزراء أوروبيين أو أميركيين سابقين، وقفوا جميعاً في لحظة يقظة إنسانية وهم يدافعون عن العمليات الاستشهاديّة الفلسطينية بسبب قسوة الجور الإسرائيلي، والتوظيف السليم للفلسطينيين لحقّهم المشروع في الدفاع عن مظلوميّتهم وضرورة رفعها.

5

إيران والهويّات المقاومة ـ الكفاح من أجل الاعتراف

لا بدّ من القول إنّ ثمة رسالة يجب إيصالها ليس فقط إلى الرئيس الأميركي الجديد الذي ينتظر العالم تربّعه على العرش الإمبراطوري للدولة العظمى التي شغلت العالم وأشغلته وأشعلته بالحروب الاستباقية والردعية لأكثر من خمس سنوات متتالية، بحجة مكافحة الإرهاب مرة، وبحجّة مكافحة خطر تعرّض الأمن الدولي أو الأمن القومي للدولة الأعظم في العالم مرة أخرى، بل إن هذه، الرسالة يجب أن تصل إلى كلّ من يهمه أمر أمن واستقرار العالم بعيداً عن الحروب العبثيّة الظالمة والمجحفة بحقّ البشرية، وهي رسالة تحقيقيّة حول رؤية واحد من أهم رواد الإصلاح والتغيير في العصر الحديث، ألا وهو الإمام روح الله الموسوي الخميني، والذي ظلّت ملفات بلاده واحدةً من القضايا والملفات الأكثر سخونةً في عصر الجموح الإمبراطوري للمحافظين الجُدُد، والتي أخذت الكثير من الجهد والمجهود السلمي والحربي الدوليين باتجاه الضياع والهدر، وربما ساهمت من بين الكثير من القضايا والملفات الجدليّة في إفقار الاقتصاد الأميركي بخاصة، وإدخال العالم في مجهولات

«الفوضى الخلاّقة» والفتن المتنقّلة باعتراف كبار الساسة والنُخُب والكتاب الأميركيين وكثير من عقلاء العالم، ألا وهو ما بات يُطلق عليه بالملف الإيراني اختصاراً!

إنّ «إيران الثورة الإسلاميّة» كظاهرة للدولة العالمثالثية العصرية الحديثة الولادة؛ ولكنها المتميّزة والمتمايزة عما اعتادت عليه العقول الغربية لاسيما الأمريكية منها، على التعامل معه من أنداد وخصوم حتى الآن، تمثل بالنسبة إلى أهلها وإلى من يناصرها من القوى غير الحكوميّة المنتشرة في العالمين العربي والإسلاميّ، ظاهرة من ظواهر الإصلاح والتغيير، وتالياً المقاومة والممانعة، وربما بمثابة الدولة «المثال والنموذج» للظواهر الحديثة الولادة لما يمكن تسميته مجازاً بالقوّة العابرة للحدود القومية، والطائفية، والمذهبية، والأيديولوجيّة في سلوكها السياسي العام. ويأتي هذا الكلام بعدما حوّلت ظاهرة «المظلوميّة» في الممارسة السياسية العامة لها، لاسيما في مجال السياسة الخارجية، إلى نوع من «الجنسية» والهويّة المواطنية التي يمكن أن يحملها ليس فقط مواطنوها وكادراتها العاملين في مؤسّساتها، بل وكلّ الموالين لها أو الأنصار أو المتحالفين معها من قوى وأفراد وجماعات ومنظمات، وبهذا تصبح مسألة إقرار الهويّة لكلّ منها مطلباً عادلاً ومشروعاً يجب الاعتراف به أولا، ومن ثم انتزاعه من المجتمع الدولي والإذعان له بأي شكل من الأشكال!

انطلاقاً ممّا تقدّم نجد من الضروري إلقاء الضوء على رؤية ذلك القائد المصلح وورثته من النخب الحاكمة اليوم في إيران لدور دولتها الحديثة، ولدور حركات التحرّر الإسلاميّة المتماهية معها في العالم، وفي طليعتها حركتا التحرّر الفلسطينية واللبنانية، وتسليط الضوء كذلك على مقولة «المستضعفين»، وعملية «التماهي» مع هذه القضايا والتي كانت بدايتها مع شعار «اليوم إيران وغداً فلسطين»،

مروراً بتدوين ذلك كبند أساسي من بنود الدستور الإيراني الذي يُسمَّى القانون الأساسي للبلد، وصولاً إلى مقولة أن الدفاع عن أسوار أية مدينة مظلومة في العالم المستضعف ـ وفي المقدّمة بالطبع العالم الإسلاميّ ـ إنما هو دفاع عن الأمن القومي الإيراني، من واجب أي متتبع أو دارس لعلم السياسة الحديث أن يتمعّن جيداً في هذه الظاهرة الجدلية الجديدة، لعلّه يأخذ العبرة منها في تدوين وتدبير سياسة دولية جديدة تجاه هذا البلد الظاهرة، ما سيساعد حتماً في نزع وإزالة التشنّج والتوتّر العالميين، ويُعيد بعض الطامحين بدور إمبراطوري غير محدود إلى رشدهم بعد طول اعتداد وغرور وفَرْعَنة!

ومن أجل ذلك كلّه، وخدمة لرؤية دولية موضوعية بعيدة عن التحريض والأحكام المسبقة، نقدّم هذه القراءة المتواضعة التي نظنّ أنها تلامس الحقيقة قدر الإمكان عن حركة التحرّر الإسلاميّة الحديثة التي تُمسك بزمام السلطة اليوم في إيران، ومرّة أخرى لعلّ ذلك يساعد في رسم عالم جديد أكثر عقلانية ووداعة وعدلاً وإنصافاً، مما نحن عليه اليوم من عسف وظلم وجور وعَسْكَرة لا مبرّر لها في العلاقات الدولية!

لا يختلف اثنان من المراقبين لأحوال حركة التحرر الوطني الإيرانية المعاصرة، على أن من أهم العناصر المساهمة في قيام ونجاح الثورة في إيران في العام 1979م إنما يعود إلى الاتجاه الديني الذي اتخذته هذه الحركة في العقدين الأخيرين اللذين سبقا قيامتها «القومية» ونجاحها، وإلى الفرادة النوعية التي تَميّز بها قائد هذه الثورة، إن من حيث مرجعيّته الدينية التي خرجت على المألوف والتقليد، أو من حيث خطابه الثوري الجهادي الذي بزّ فيه ألمع ثوار حركات التحرّر المعاصرة التي كانت سائدة آنذاك.

لكن ما لا يعرفه أحد ربما عن هذه الثورة وقادتها جيداً، اللّهم

إلا النخب من أهل المتابعة والاختصاص، هو ذلك البُعد الآخر الذي لا يقلّ أهمية عن البُعد الأول، ألا وهو البُعد الخاص بـ«الهويّة» الانتمائية، إذا جاز لنا مثل هذا التعبير؛ أي الشعور المتراكم والمتجمّع عبر الزمن الطويل لدى عامة الشعب الإيراني والنخب والقيادات الوطنية عامة، والدينية منها على وجه الخصوص، بأن ثمة ظلماً تاريخياً لحق بالأمة الإيرانية تكثّفت أبعاده واتّسع مداه بشكل خاص في عهد الأسرة البهلويّة، ما دفع بإيران في أواخر عهد هذه الأسرة البائدة إلى نوع من الانفصام والانقطاع عن سياقها الوجودي والتاريخي، بل والجيوسياسي ولا ريب في أن هذ الأمر كاد يرمي بها بكل قوة باتجاه خيار الفصل والقطع النهائي مع محيطها الإسلاميّ الطبيعي وعالم الشرق الذي تنتمي إليه، ويصنع منها أشبه بـ«الجزيرة» المنعزلة المنسلخة عن الجسم الرئيسي المحيط. وليس هذا فحسب، بل ظهرت وكأنها تنتمي إلى عالم آخر هو في تضادّ وتخاصم جوهريّ وتاريخيّ مع تربتها وبيئتها الحضارية، ألا وهو عالم الغرب الاستعماري بمفهومه السياسي والفكري المعروف.

ويجدر القول إنّها الحيثيات التي كادت تفضي، كما هو معروف، إلى تبلور ظاهرة «كمالية» جديدة أخرى تُضاف إلى سابقتها التركية التي سبق وأفرزت عملية انسلاخ جزء من جسم الأمّة الإسلاميّة كما حصل مع الدولة العثمانية. لقد كانت في الواقع العملية الأخطر على الأمّة من بعد تفكّك دولة الخلافة العثمانية، والتي أراد الاستعمار الغربي من ورائها سلخ البلاد من الوطن الأم: أي فصل إيران عن محيطها الإسلاميّ وهمومه واهتماماته المركزية لولا أن عاجلها «الانقلاب» الثوري الذي قاد إلى قيام الجمهورية الإسلاميّة الإيرانبة التي نعرفها والقائمة تداعياتها حتى لحظة كتابة بحثنا الراهن.

وعلى هذا الأساس، ثمة من يرى أن نجاح الثورة الإسلاميّة الإيرانيّة بقيادة الإمام والمرجع الديني الأعلى لإيران، لم تكن عملياً سوى العملية الجراحية القيصرية التي كان لا بد منها لإعادة وصل ما انقطع من أواصر تلك «الهويّة» المجتمعية بأقل الأثمان والأكلاف التي عرفتها الثورات في العالم.

من هنا، يعتقد العارفون بأحوال وحيثيّات حركة التحرّر الإيراني الثورية المعاصرة أنه بقدر ما كان الدين جزءاً رئيساً وأساسياً من أجزاء المشروعية التي اكتسبتها والتي دافع عنها قادة الثورة وما يزالون إنما هو بُعد الهويّة الذي لم يكن يوماً أقل أهمية من البُعد الأول.

لا بل إنّ من يقرأ التاريخ الإيراني الحديث يكاد يستنتج أنّ التخلّي عن هذا البُعد؛ أي بُعد الهويّة الحضاري، قد يضع المشروعيّة التاريخية للثورة محلّ جدّل جدي إن لم يدفعها في مهب الرياح العاتية التي كانت ولا تزال تُحيط بالثورة من كلّ جانب؛ لذلك حرصت قيادات الثورة ومنذ اليوم الأول على الدفاع عنه بكلّ ما أُوتيت من قوة، ولا تزال تعضّ عليه بالنواجذ؛ لأنها تعرف تماماً أنّ التخلّي عنه أو فقدانه أو تعرّضه للاهتزاز، من شأنه أن يعرّض أصل الثورة وربما وحدة المجتمع والبلاد للتهديد والخطر الجدّي!

إنه الكفاح من أجل الدفاع عن الذات وعن الانتماء وعن الهويّة التي ترسم صورة البلاد والعباد الحقيقية. الكفاح الذي يكاد يلخّص معركة الوجود مقابل اللّاوجود؛ أي استمرار بقاء الدولة الإيرانية مقابل زوالها! إنها معركة أن تكون أو لا تكون. معركة بناء الشخصية وترسيخ جذورها عميقاً في الأرض في مقابل التعلّق بأيّة قشرة ظاهرية «مُستلبة» من العالم الآخر القادم من بعيد في إطارسرقة الهويّة أو استئصالها.

وفي هذه النقطة بالذات، ثمة من يعتقد جازماً بأنه، وفي هذه النقطة بالذات، يظهر تقاطعُ رُؤىً عميقُ الجذور ثم يصبح في لحظة تاريخية استثنائية أشبه بـ«تقاطع المصالح» بين مقولة الثورة الإسلاميّة الإيرانية المنبثقة من حركة التحرّر الوطني الإيراني، وبين مقولة الثورة الفلسطينية المسلحة المنبثقة بدورها عن حركة التحرّر الوطني الفلسطيني المعاصرة بشكل خاص، وكذلك مع حركة الممانعة والمقاومة العربية للمشروع الاستعماري التقسيمي للأمة العربية بشكل عام.

وعند نقطة الالتقاء هذه يكاد يصبح الدفاع عن الثورة الفلسطينية أو حركة المقاومة اللبنانية الوطنية والإسلاميّة منها بشكل خاص في ما بعد، ودعمها وإسنادها بكلّ الثقل المعروف، وكأنه جزء لا يتجزّأ من معركة الاستقلال الوطني الإيرانيّ نفسه وأمن البلاد القومي، لا بل إن الأمر يتطوّر في لحظة زمنيّة معيّنة ليصبح جزءاً من مشروعيّة قيام الثورة، والنظام الإسلاميّ المنبثق منها ومبرِّر بقائه!

وهكذا، وفي تلك اللحظة التاريخية، يصبح المناضل الثوري الإيرانيّ المدافع عن الحق الفلسطيني أو حق المقاوم اللبناني، وكأنه يدافع عملياً عن مقولة الانتماء إلى «هويّته» الوطنية والقومية والدينية المُستَلبة قبل أن يكون مدافعاً عن هويّة «خارجية»، وبالتالي تراه يذهب بعيداً وعميقاً في هذا الدفاع عن تلك الهويّة التي قد تبدو للحظة «خارجية»، إلى درجة التماهي مع مشروعيّة الدفاع والكفاح من أجل الاستقلال والحرية والتحرّر لإيران نفسها من سلطة الاستعمار والهيمنة الأمبريالية.

نعم لحظتها ومن جديد، يصبح الكفاح الإنساني من أجل حق العودة للفلسطينيين، والدفاع عن القدس الشريف، وعن حق مقاومة الاحتلال والتحرّر من الانقياد والتبعيّة والاستلاب على مستوى

الشعوب المستضعفة في العالم، وكأنه صورة طبق الأصل، إن لم تكن هي الأصل عن كفاح المناضل الإيراني من أجل استعادة الذات الإيرانيّة التاريخيّة المسلوبة، لا بل الكفاح من أجل إعادة إحياء العالم الإسلاميّ المحاصر بقانون الغَلَبة الاستعماري، ومن ثم إحياء «دار الإسلام» المقطّعة الأوصال، بل حتى إحياء عصر الخلافة الراشدي الأول!

في هذه اللحظة التاريخية ينشأ نوع من «وحدة حال» بين رواد حركة التحرّر الوطني الإيرانية مع رواد حركة التحرّر الوطني الفلسطينية بشكل خاص، وانطلاقاً منها حركة المقاومة اللبنانية ومن بعدها حركة المستضعفين العالمية التحرّرية على التوالي، قاسمُها المشترك وعنوانها العريض، هو: الدفاع من أجل استرجاع «الهويّة» المغتصبة أو المُستَلَبة!

وقد يقول قائل هنا: إنّ مثل هذا الشعور قد ينطبق على أيّ شكل من أشكال المقارنة بين نضالات هذا القطر أو ذاك من أقطار العالم العربي أو الإسلاميّ، وبين نضالات الشعب الفلسطيني. وهذا صحيح جزئياً؛ لكن الميزة الخاصة التي تُميّز بها ولا يزال الثوار الإيرانيون من جماعة الإسلام السياسي الإيراني المعاصر بقيادة الإمام روح الله الخميني ونهجه الحاكم حتى اليوم في هذا السياق، هو أنهم بنوا أساس كفاحهم التحرّري واستقلالهم الحالي على قاعدة إعادة تعريف إيران الوطن والبلد من جديد على قواعد «الهويّة» الآنفة الذكر، وليس عل قواعد الأمن القومي والمصالح القوميّة التقليدية فحسب، ما جعلهم يشعرون بوجود مقاربة خصوصيّة بينهم وبين الفلسطينيين واللبنانيين تالياً، والمستضعفين عموماً، هي في الواقع أكثر من الخصوصية التي تجمع بين سائر إخوانهم المسلمين مع فلسطين أو لبنان فضلاً عن المستضعفين!

وإذا ما ذهبنا إلى تحديد أكثر دقة، وهو أن الثوار الإيرانيين الحاكمين كانوا وما يزالون يضعون هدفاً رئيسياً نصب أعينهم عنوانه الرئيس الكفاح من أجل «انتزاع» اعتراف دولي بهويّتهم الأصليّة وخصوصيّة ثورتهم الحضاريّة والوجوديّة، في ظلّ استنكاف منقطع النظير من قبل قوى الهيمنة العالمية عن ذلك تماماً، لا يشبه في خصوصيّته أيّ نضال آخر في المنطقة اللّهم إلا كما هي الحال مع مهمة الإقرار والإذعان والاعتراف الذي يسعى اليه الفلسطينيون ويأبى العالم أن يمنحهم إيّاه حتى الآن، وهو ما تسعى إليه المقاومة اللبنانية أيضاً ولا تناله إلا بشق الأنفس على ما يبدو!

وغنيّ عنة القول إنّ هذا الاعتراف لا يزال الغرب الاستعماري يتمنّع عن الإقرار والإذعان له بخصوص الإيرانيين ـ والذي تتكثّف صورته أكثر ما تتكثّف في مجال المعالجة العنصرية والكيدية لملفّها النووي ـ تماماً كما هو فاعل دوماً مع الشعب الفلسطيني منذ أن سُلبت هويته مع أرضه وسائر حقوقه، مرة بحجة عدم مواءمته مع المعايير «المتعارف» عليها دولياً، ومرة بذريعة «خروج» الطرف المعني هنا على الشرعية الدولية، وهو ما رأيناه أيضاً بأم أعيننا وبالشكل الوحشي والتعسفي غير المعقول مع قضية المقاومة اللبنانية أيضاً!

إنها المقارنة نفسها التي سبق للمناضل الإيراني أن أقامها بينه وبين المناضل الجزائري أيام الكفاح الذي خاضته حركة التحرر الجزائرية من أجل تثبيت الجزائر عربية مسلمة أمام إصرار المستعمر الفرنسي وعناده على اعتبارها جزءاً لايتجزأ من الأرض الفرنسية!

وبالتالي، فالمشكلة هنا تتجاوز ذلك التضامن التقليدي المعروف بين أبناء القومية الواحدة، كما هو موجود بين الأقطار العربية التي يُفترض أنها تنتمي إلى وطن واحد، أو أبناء الدين الواحد لبلد واحد

بعينه، أو أبناء التاريخ المشترك أو سائر مجالات الاشتراك المعروفة فحسب!

إنه أبعد من ذلك بكثير؛ إذ إن ثمة شعوراً داخلياً عميقاً غائراً في أعماق ووجدان الشخصية الإيرانية المناضلة، ممهوراً بالقهر والمعاناة تجاه تحريف أو سرقة الوجه الحقيقي لبلاده خلال العصور الملكية الاستبدادية البائدة، وهذا الشعور يدفعه من أجل استعادة «هويّة» «إيرانه» الحضارية والوطنية والدينية التي اختطفت لقرون من قبل الاستعمارين القيصري القاري شمالاً مرة، والإمبريالي البحري جنوباً مرة أخرى، يدفعه إلى أن يتماهى على الدوام مع كلّ أشكال النضال ضد التمييز العنصري أو العرقي أو الطائفي أو القومي أو الديني في كلّ مكان، لا سيما إذا ما تكثّف هذا النضال والكفاح وصار يشمل حق الوجود نفسه، كما هو الحال مع قضية مثل القضية الفلسطينية، حيث يبرز في صورة «إنكار للهويّة الوجودية» بكل أبعادها الانتمائية مهما ضاقت تلك الدائرة أواتسعت قومياً أو دينياً أو حضارياً!

فممّا لا شكّ فيه أنّ في هذه الحالة تبرز كلّ أشكال الاستلاب والتعنّت على رفض وجود شعب برمّته مجرّد الوجود لا في دائرة ترابه الوطني فحسب، بل أيضاً في دائرة قومه وفي دائرة دينه، وهي القضية التي باتت تشمل كلّ نضالات شعوب المنطقة من حيث انتمائها إلى عالم مترابط يحمل مضمون الانتماء الحضاري المتواصل عبر هويّة موحَّدة! تلك الهويّة التي تناثرت أشلاؤها في تضاريس نسيج من المجتمعات الإسلاميّة المتقطّعة الأوصال، والتي لم تعد قوى الهيمنة على استعداد للاعتراف بها، إلا في إطار ما صار يُطلق عليه بـ«الشرق الأوسط الكبير» مرة وبـ«الشرق الأوسط الجديد» مرة أخرى، حتى يضمنوا تعريفاً «وجودياً» ما! للدويلة الصهيونية

الإسرائيلية الغاصبة. بل إن ثمة من أخذ على عاتقه من عصابة المحافظين الأميركيين الجُدُد من التيار المسيحي المتصهين، أن يمنحها الحصة القيادية في هذا «الشرق الأوسط» المسخ الذي يخططون له.

من هنا يمكن القول إنَّ جامعاً مشتركاً عميقاً ورابطاً شعورياً خاصاً وعميقاً جداً، يجمع عملياً بين الإسلام السياسي الحاكم في إيران وقوى المقاومة والممانعة العربية وفي الطليعة منها الفلسطينية واللبنانية، عنوانه العريض هو: الكفاح من أجل «انتزاع» الاعتراف بالوجود والانتماء للهويّة الحضارية الخاصة من جانب ما بات يُعرف بـ «المجتمع الدولي» بأي ثمن كان، وعدم الاكتفاء بمفاهيم الاستقلال الشكليّة المتعارف عليها!

استناداً إلى التحليل الآنف الذكر فقط، ونظنّ أنه يُلامس حقيقة الرُؤى التي يحملها روّاد حركة التحرّر الإيراني الدينية إلى حد كبير، يُمكننا أن نفهم وندرك هذا الإصرار والتشبّث بالمواقف الصارمة والقاطعة والحازمة ـ والتي غالباً ما تُوصف بالمتشدّدة أو المتطرّفة أو الراديكاليّة ـ التي تُبديها القيادات السياسية التي تسلّمت السلطة في إيران منذ قيام الثورة عام 1979 حتى الآن، تجاه قضية المقاومتين الفلسطينية واللبنانية. ويأتي هذا التشبّث بالمواقف على الرغم من كلّ التحوّلات التي طرأت أو قد تطرأ مستقبلاً على هذا الملف، لاسيما بعدما غدا مترابطاً أشدّ الارتباط على ما يبدو بملفّات لا تقلّ أهميّة أو سخونة عنه مثل ملفات تحرير العراق وأفغانستان فضلاً عن ملف تحرير العالم كلّه وتحرّره من أخطار طموحات الإمبراطوريين الأميركيين الجدد الجشعة وغير المحدودة!

في المقابل، فإنّ أيّ تردّد أو تراجع من جانب الحاكم الإيراني أو الطبقة السياسية الحاكمة في إيران عن أيّ من المواقف المُعلنة

تجاه الملفات الآنفة الذكر، من شأنه أن يصيب المشروعية التي قامت عليها الثورة الإسلاميّة نفسها في الصميم.

إنه إذن أبعد من مجرد التضامن أو التعاضد أو المساندة أو الدعم لحركة تحررية عادلة هنا أو هناك، بل إنه أشبه بالدفاع عن النفس والدفاع عن الذات وعن المشروعية التي قام عليها المشروع الإيراني نفسه عندما تراهم يدافعون عن القضية الفلسطينية وأصحابها ومناضليها، أو القضية اللبنانية ومقاومتها الإسلاميّة والوطنية أو قضايا المستضعفين في العالم.

بالدفاع عن أسوار القدس وبيت المقدس، إنما هم يدافعون عن أسوار طهران وعن الأمن القومي والديني الإيراني في الصميم، وليس عن أبواب القدس وبوابة صلاح الدين الأيوبي فحسب!

وهكذا هو الأمر بالنسبة إلى الدفاع عن المقاومة اللبنانية ومظلوميتها، أو الدفاع عن المقاومة العراقية ومظلوميتها، أو الدفاع عن القضية الأفغانية ومظلوميتها، بل وحتى الدفاع عن قضايا حركة التحرر اللاتينية والأفريقية ومظلوميتها.

قد يقول قائل هنا: إنّ هذا هو ما يدعيه الطرف الآخر ممن يقف إلى جانب ما يُسمَّى بروّاد حركة الحريات والديمقراطيات وقضايا حقوق الإنسان وما شابه، ممن يحمل المشاريع «الشرق أوسطية» المشار إليها آنفا والذي يقف على الضفة الأخرى مما بات يطلق عليه بـ«المشروع» الإيراني!

لهؤلاء نقول: لكن ثمة فرق كبير وشاسع بين المشروعين، ألا وهو إن ما يُسمَّى بمشروع الحريات والديمقراطية الأمريكي إنما يقوم أساسا على الصرف والدفع من الأمن الوطني أو القطري لهذا البلد أو ذاك من البلدان العربية أو الإسلاميّة لصالح العدو الصهيوني الذي

لا جدال ولا خلاف كما يفترض على عدوانيته ونواياه التوسّعية وارتباطه بالأطماع الاستعمارية والإمبريالية العالمية، فيما يقوم «المشروع» الإيراني على الدفع والصرف من أمنه القومي الخاص لصالح وحساب هذا البلد العربي أو الإسلاميّ الخاص الذي يتماهى مع مقاومته أو ممانعته أو نضالاته العادلة، وهذا بالضبط هو الفرق بين مشاريع العنف والإرهاب المنظم والقتل على «الهويّة» الذي يحمله المستعمرون لأوطاننا، وبين مشاريع النضال والكفاح من أجل الدفاع عن الهويّة الحضارية لبلداننا والإصرار على انتزاع الإقرار الدولي بها والاعتراف لها بخصوصيتها ومكانتها المستحقة تاريخيا وجغرافيّاً وعقيديّاً طبقاً لكافة الأعراف والقوانين الأرضية والسماوية المعترف بها!

وهنا يظهر الفرق والبون الشاسع بين من يريد لمنطقتنا وأمتنا وبلادنا وأوطاننا «وحدات سياسية جغرافية» طارئة ومؤقتة وغير مستقرة قائمة على مقولة «الهويّات» القلقة والمتقاتلة والمتناحرة، وبين من يريد لها أوطانا حقيقية وأصيلة ثابتة ومستقرة تقوم على التعدديات الثقافية والقومية والمذهبية أو الطوائفية المتصالحة في طار الهويّة التوحيدية والواحدة التي لا تقبل القسمة الاستعمارية البغيضة!

وهذه هي الخلفية الحقيقية برأيي المتواضع للشعار العميق المعاني الذي رفعته القيادة الإيرانية العليا ممثلة بالإمام روح الله الموسوي الخميني رجل الإصلاح والتغيير في علاقات بلاده الخارجية أيضاً بامتياز، ومعه الشعب الإيراني المناضل والشريف في وقتٍ مبكرٍ من عهد ثورتها المعاصرة: «اليوم إيران وغدا فلسطين»!

وهذا هو العمق الحقيقي الذي يقف وراء مشروع «يوم القدس العالمي» تماما كما هو نفس العمق الذي يقف اليوم خلف كلّ المواقف الحازمة والثابتة التي ترفعها القيادة الإيرانية مجتمعة والتي

لا يختلف عليها الرئيس أحمدي نجاد، مع من سبقوه من الرؤساء ولا من سيتسلمون السلطة من بعده؛ لأنهم جميعا يشربون من منبع واحد في هذا المجال، مهما حاول البعض أن يصف تلك المواقف بالخارجة عن السياق؛ لأجل التشويش عليها أو تشويهها من خلال نعتها بالمتشددة أو المتطرفة أو الراديكالية مرة أخرى والتي ستظل هي نفسها في أفق الثورة والدولة الإيرانية المستقبلية ما دامت إيران في أكناف «المشروع» النضالي العلمائي المكافح من أجل استقلال البلاد الناجز ومعها فلسطين ولبنان والعراق وأفغانستان وسائر دول وشعوب وأمم آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وتداعيات هذا التمازج على الساحات الإقليمية المختلفة وفي طليعتها ساحة الكفاح والجهاد والمقاومة اللبنانية المشرِّفة التي باتت اليوم رمزاً يفتخر به كلّ العرب والمسلمين بل وكل أحرار العالم وشرفائه في أركان الكرة الأرضية الأربعة، بل قبلة كلّ ثوار العالم التواقين للتحرر من نير آخر ما تبقى من أشكال التمييز العنصري واغتصاب الأرض والحقوق المتمثل بدولة الإرهاب الصهيوني وسيدها الإمبريالي الوحشي والجشع سواء ذلك المتمثل بعقلية السيد الأبيض الذي يرى نفسه مركز الكون أو بعقلية الدولة الأعظم في العالم والتي لا تريد أن تغادر مقولة نهاية التاريخ إلا اللهم أن يهدي الله على يديه ساكني البيت الأبيض الجديد ليفوا بوعدهم في التغيير إذا صدقوا!

6

إسلام الدولة والحكم مقابل إسلام الانتظار السلبيّ

في معرض حديثه عن واجبات الفقيه العارف، يقول روح الله الموسوي الخميني: «**إنّ حصر واجبات الفقهاء وعلماء الدين بمراسم العبادات وبيان أحكامها وشرائطها، من طهارة ونجاسة ودعاء ومناجاة فحسب، هو من مخلفات سموم المستعمرين، أعداء الإسلام قاتلهم الله أنّى يُؤفكون. إنّ أوّل واجبات الفقيه العارف بأحكام الشريعة الإسلاميّة هو النهضة والقيادة من أجل اعلاء كلمة الله في الأرض، والجهاد المستمر لتطهير أرض الله من أعداء الله عزّ وجلّ. ومن واجبات الفقيه حمل السلاح وقيادة الجيوش ومكافحة اعداء الإسلام في ميادين الجهاد المشرفة. إن من صلب واجباتنا الدينية العمل الدؤوب من أجل تشكيل دولة إسلاميّة صحيحة قائمة على أساس العدل والمعرفة**». ومن خلال تحليل هذا القول نرى أنّ قليلين هم ممن يُتاح لهم أن يُسهموا من موقع القيادة في صناعة متحوّلة لتاريخ شعوبهم؛ حيث تأتي فترات حياتهم متواصلة في خط بياني صاعد، يتعرّج ويستقيم طبقاً لتعرّجات تاريخ تلك الشعوب، حتّى تصبح سيرتهم الخاصة جزءاً من التاريخ العام لشعوبهم، وما

من شكّ في أنّ الخميني كان واحداً من أولئك بامتياز!

ومن المهم القول إنّه بمقدار ما كان الرجل واقعياً في قراءته للمتغيّرات من حوله وطريقة التعامل معها، كان أيضاً متمرّداً عليها ومصمّماً على ضرورة تغييرها بكلّ صلابة وقوة.

وعندما بدأ دروسه الأخلاقية في النجف الأشرف تحت عنوان الحكومة الإسلاميّة، لم يشأ أن يحتكر هذه الرؤية لنفسه، بل أرادها أن تنتشر مثل النار في الهشيم بين تلامذته وطلاّبه، ولم يكن الآتون إلى درسه مجرّد مريدين محلّقين حول درويش متصوف، فقد تحوّلت الدروس وروادها إلى قاعدة للاحتجاج والثورة والتصحيح لمنهج لطالما حرص الإمام على نقله من حالة الانتظار السلبي إلى حالة الهجوم الإيجابي، وهكذا حصل التحوّل العميق في الفكر السياسي للطائفة الشيعية الإسلاميّة في العصر الحديث على يد ذلك الرجل العارف الثائر!

من خلال الكلام الآنف الذكر يتّضح تماماً أنّ الإمام يبحث عن علماء عمل وتدبير واستعداد للنزول إلى الميدان، ومعايشة أوضاع الناس والجماهير العادية، وليس العيش في أبراج عاجيّة كما كانت الحال المحيطة به آنذاك وهو يقدّم دروسه.

ولهذا ركّز في دروسه على ضرورة الفصل بين العالم العامل والعالم بالاسم فقط؛ أي المحسوب على الدين مع كونه لا أثر له في دنيا الأعمال، وتعليقاً على الحديث الشهير القائل «إذا مات العالم ثُلِم في الإسلام ثلمة لا يسدّها شيء» «ولكن أي عالم هذا.. نعم هو ذاك الذي قيل فيه: «...من كان من العلماء لدينه صائناً لنفسه مطيعاً لأمر مولاه مخالفاً لهواه...» أما أنا وأنت فماذا قدّمنا للإسلام حتى ينطبق علينا مثل هذا الحديث أو أن نصبح مصداقاً له؟!.... فلا فراغ يحدث عند موت ألف ممن يعمل على

شاكلتنا؛ لأن حياتنا هي فراغ، وبالتالي فلا ثلم يحدث حتى عند موت ألف منا، بل قد تكون حياتنا هي بحدّ ذاتها على هذا النحو ثلماً في الإسلام ينبغي سدّه بغيرنا»، كما ورد في كتاب الحكومة الإسلاميّة.

ولا ريب في أنّ الإمام الخميني يُحدِث هزة عنيفة من خلال هذه القراءة المختلفة تماماً عما اعتدنا عليه من قراءة انتظارية سلبية، كانت تقدّم العالِم بل والمتديّن عموماً بأنه يكفيه أن يبكي، أو حتى يتباكى على الحسين والهاشميين والطالبيين، حتى يضمن دخول الجنة! إنّه يحدث هزة عنيفة في تلك الرؤى التقليدية التي كانت تقدّم للرأي العام مجرّد القيام من أجل بناء الحكومة الإسلاميّة إنما هو باطل! ذلك أن القيام غير مطلوب أصلاً قبل ظهور المهدي المنتظر، وأيّ راية ترفع قبله ليست هي بنظرهم سوى راية ضلال!

على هذا الأساس، فإنّ اعتقاد الإمام الخميني الواقعي والحقيقي هو ليس فقط إمكانية قيام نظام حكم إسلاميّ في عصر الغيبة، بل وجوب ذلك أيضاً، ما يعني عملياً ضرورة ممارسة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كاملة ومن دون نقصان، مهما يكن حجم الأضرار والخسائر الماديّة الظاهريّة التي تلحق بالأمة، ومهما كبُر حجم التحدّي!

في المقابل، فإنّ المنهج المعارض يعتبر أنّ وجوب تلك الفريضة لا يتأتّى إلا بعد الاطمئنان من عدم ترتّب الضرر وإحراز الأثر كما ورد مثلاً في محاوراته مع كبار مراجع النجف الأشرف والتي كانت تروّج أنّ تسعة أعشار الدين تكمن في التقيّة ما يعني عملياً تقليل موارد العمل بالفريضة الخامسة إلى حد الصفر، بينما يرى الإمام العكس من ذلك تماماً؛ وذلك استناداً إلى منظومة متكاملة من الفكر السياسي المختلفة والتي تتّكئ في ما تتكئ على أن

المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وأن الخروج على الحاكم الظالم في الوقت المناسب، هو الذي يمنع سفك دماء الأمّة، ويحفظ للدين جوهره وباطنه، لاسيما إذا كان ذلك الحاكم متجاهراً بالظلم والتبعية للأجنبي، ومتعاوناً مع المحتلين وناهبي ثروات الأمّة ومقدراتها.

إنها هزة وأية هزة تقلب الأمور رأساً على عقب، وعندها يصبح ما كان محرّما في الواقع على البعض من المتديّنين أو محرِجاً لدى الآخر منهم، أو يضعه في إشكاليّة حقيقية مع إخوانه في الانتماء المذهبي فضلاً عن الديني، يصبح واجباً دينياً ملزماً عند القادم الجديد. كيف؟ فلنسمعه مثلاً كيف يرد على استفتاء للفدائيين الفلسطينيين الذين كانوا يقاتلون لهدم الكيان الصهيوني ومن أجل تحرير التراب الفلسطيني:

«من الراجح بل الواجب، تخصيص قسم من الحقوق الشرعيّة من الزكاة وحق الإمام ـ بما فيه الكفاية ـ للمجاهدين في سبيل الله، المرابطين في خطوط الشرف والمجد للقضاء على الصهيونية الكافرة اللاإنسانية واستعادة المجد الإسلاميّ الجريح، وتعزيز التاريخ الإسلاميّ المشرِّف، وعلى كلّ مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يبذل كلّ جهوده في هذا السبيل... وإخواننا الفاتحون بإذن الله العلي القدير، رجال فتح ومقاتلوها قوات العاصفة وسائر الفدائيين الأحرار، هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تجب مساندتهم ومساعدتهم بكل الطاقات والإمكانيات. والله ولي التوفيق.»، كما ورد في كتاب «دروس في الجهاد والرفض» المطبوع والموزع في بيروت قبل انتصار الثورة الإسلاميّة على يد أنصار الحركة الإسلاميّة في إيران.

أيّة ثورة فكرية هذه هي التي يحثّ عليها هذا الثائر الحسيني

الجديد الذي دخل إلى صندوق المرجعيّة الذي حاول البعض أن يقفله في ذلك الوقت عليه، بل لا يسمح لأحد بدخوله إلا بدفتر شروط مهادنة الحكام القَتَلة والخَوَنة ممن تركوا القضايا الأساسية للناس واكتفوا بوعّاظ يحرّمون ويحلّون لهم ما يشتهون!

أيّ ارتجاج فكري يُحدث هذا الثائر الجديد في أوساط رجال الدين والمرجعيّات الدينية عموماً، إلى أيّ مذهب أو ملّة انتموا وهم الذين كانوا يتناقشون ما إذا كان يُسمح للمرء أصلاً أن يقدّم الدعم المعنوي فضلاً عن المادي لمقاتلين لا يقاتلون تحت راية قيادة دينية صالحة مؤيّدة ومسدّدة من الأعلى، فإذا بالثائر والمتمرّد الجديد يعتبر ذلك واجباً فضلاً عن أنه يحثّ العامة من الناس على القتال في صفوف هؤلاء!

أتعرفون لماذا؟!

لأنَّ بوصلة الرجل لا تُخطئ، وتقديره للموقف هو الأسلم وليس السليم فقط، وحسابات الربح والخسارة عنده ليس عدد المقلّدين والمقبّلين للأيادي، بل مقدار رضا الله عنه، ومدى مطابقة أعماله وسلوكه وأفكاره لأعمال وسلوك وقِيَم وشرائع الأنبياء والرسل من أولي العزم.

نعم إنه هنا يقلب آية الانتظار رأساً على عقب، فبدلاً من الدعوة والترويج لكون المطلوب أن ينتشر الفسق والفجور والفساد في البر والبحر، حتى يتمّ التعجيل بظهور المهدي المنتظر (ع)، كما كان الميّلون إلى الراحة والدعة والاستكانة والجَهَلة يروّجون! فإنّه كان يطالب، على العكس من ذلك تماماً، بضرورة العمل المخلص والجاد والصارم على تشكيل جيش المهدي المقاتل أولاً حتى نُهيّئ الأجواء ونُمهّد لحضور الحجة صاحب العصر والزمان!

وهكذا، وبدل أن يصبح أتباعه منتظرين سلبيّين يصبحون من أصحاب نظرية الممهّدين للمهدي.

ومن هذا المنطلق، يصبح كلّ أفراد الشعب الإيراني المسلم لديه جنوداً مجندة للدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني من جهة، وتشديد الحصار على الصهاينة من جهة أخرى، وفي ردّة على السؤال الثالث في الاستفتاء الفلسطيني حول واجب أبناء الشعب الإيراني، يقول:

«إن أنجع السبل هو أن يحاول الشعب الإيرانيّ المسلم بكل طاقاته قطع كلّ تعامل مع الصهاينة القاطنين وغيرهم من الأعداء في إيران، وأن يستأصلوهم روحياً ومادياً وأن يضيّقوا عليهم كلّ مجالات الحياة في إيران، فيحاربوهم حرباً اقتصادية في شتّى المجالات حتّى يضطرّوا إلى قطع علاقاتهم بإيران وشعبها المسلم، ويتسنّى للشعب تقديم كافة الإمكانيات من روحية ومادية للمجاهدين الأحرار، وهذه الظروف المريرة تُملي على كلّ مسلم بذل جميع الطاقات لتحرير الأرض المحتلة والانتقام من المحتلين؛ فالمسلمون يد واحدة على من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم فلا طائفية ولا عنصرية ولا أية ميزة بين الشعوب المسلمة، إلا بتقوى الله، وإنّ أكرمكم عند الله أتقاكم والله حسبنا ونعم الوكيل».

وعليه، فإنّ الفقيه الذي كان نطاق تدخّله أو حكمه حتى ذلك الحين، لا تجاوز بعض أمور الأحوال الشخصية والفصل في الشؤون القضائية في المحاكم وأمور الحسبة، فإذا به يصبح قائداً أعلى للجيوش وللقوات المسلحة، وتُطلق يده واسعة في بناء الحكومة والتنظير لفقه الدولة والحكم على مستوى الأمّة كلها وليس في القطر الذي ينتمي إليه فحسب!

لا تنظروا إلى هذا الأمر بمنظار اليوم، لقد كان أمراً خطيراً في حينه على المستويين الفكري والشرعي، كما على المستويين السياسي

والأمني، وكذلك على مستوى الحرب الإعلاميّة والنفسيّة التي كانت دائرة بين العدو الصهيوني وحماته من جهة، وبين الثوار والمناضلين من الأقطار المختلفة من جهة أخرى.

لم يكن أمراً هيّناً أبداً على رجل من صنف المرجعيّة الشيعيّة الدينية العليا في حينه، أن يغادر بسهولة كلّ قوالب وصناديق وحدود التفكير المذهبي، وكذلك الموانع الفكريّة التي كانت تقف حجر عثرة ومانعاً كبيراً أمام مبدأ مقارعة الاستبداد الداخلي أصلاً كما مرّ شرحه، فضلاً عن الدعوة للكفاح المسلح ضدّ الأجنبيّ، ناهيك عن أن يكون ذلك مسموحاً تحت راية قيادة مدنية غير مصونة ولا مصانة ولا مقبولة شرعياً، حسب أرباب الفكر الديني التقليدي الذي كان يتحكّم بغالبية الفكر الإسلاميّ قبل ظهور الزعيم والقائد الجديد!

7

عالميّة التغيير مقابل أفخاخ العولمة

في تمام الحادية عشرة من صباح الخامس والعشرين من جمادى الأولى من العام 1409 للهجرة النبويّة المصادف للثامن من كانون الثاني يناير من العام 1989 لميلاد المسيح، كان الإمام روح الله الموسوي الخميني مرة أخرى على موعدٍ جديدٍ مع التاريخ؛ حيث سيسجّل المؤرّخون ويدوّن أصحاب المذكرات التاريخية لحدث من نوعٍ فريدٍ لا يُشبه في شكله ولا في مضمونه، إلا أحداث أيام الأنبياء والرُسل، اللّهم من دون وحي ولا رسالة سماوية. نعم؛ ولكن ثمة رسالة حقّانية وبعيدة النظر وثاقبة تُوغل عميقاً في الصميم من مسيرة استشراف المستقبل.

إنها رسالة الزعيم الروحي الأوّل في ذلك العصر إلى الزعيم المادّي الأوّل في ذلك العصر!

من الخمينيّ إلى غورباتشوف:

رسالة حملها إليه وفد رئاسي اختير أعضاؤه بعناية، عالم دين معمّم من تلامذة الإمام العارفين، ترافقه إمرأة محجّبة تلبس عباءة

الحجاب الوطني الإيراني التقليدية المعروف بالتشادر، إلى جانب رجل مدني يعمل مساعداً لوزير خارجية نظام حديث التأسيس، لطالما اتّهم بتصدير الثورة، جاءوا جميعاً محمّلين ربما لأول مرة قولاً وفعلاً ببضاعة للتصدير؛ ولكن هذه المرة بشكل علني ومباشر وسلمي تماماً، وبالطبع ليس على طريقة الدعايات المزيفة التي طالما اتهموا الثورة بها وشوّهوها!

وهي الدعايات التي أريد من ورائها أن تحمل مضامين وإيحاءات الهدف منها توجيه الاتهامات بالتدخّل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى لتعبئة الشعوب الصديقة ضد القادم الجديد!

لا، إنّها هذه المرة دعوة للخلاص من ضلال التاريخ الديالكتيكي المُؤدلج، وتحذير من أفخاخ المستقبل الديناميكي المعولم!

فلنقرأ سوياً ماذا كتب الزعيم الإمام في رسالته الشهيرة والثاقبة تلك إلى الزعيم الهائم وسط الضباب والغمام المحاط بأيديولوجيّته ومعسكره، في وقت كان العالم فيه وليس الاتحاد السوفياتي فحسب قاب قوسين أو أدنى من الانجراف إلى حرب كونية لا يعرف أحد آفاقها إذا لم تثبت الأقدام:

بسم الله الرحمن الرحيم

«فخامة السيد غورباتشوف رئيس المجلس الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، مع التمنيات بالتوفيق والسعادة لكم وللشعب السوفياتي، فقد وجدت من الضروري التذكير ببعض القضايا؛ انطلاقاً من أن تصدّيكم للقيادة قد ولّد شعوراً بأنّكم قد أصبحتم في حالة جديدة تتّسم بإعادة النظر والتغيير والتعامل الجديد

في تحليل الأحداث السياسية العالمية، لاسيما قضايا الاتحاد السوفياتي، عسى أن تكون جرأتكم وشجاعتكم هذه في التعامل مع الواقع الذي يعيشه العالم منشأً لإحداث تغييرات، وسبباً لقلب المعادلات الجارية التي تسود العالم.

وعلى الرغم من أن تفكيركم وقراراتكم الجديدة قد تكون محصورة في إطار أسلوب جديد ـ وحسب ـ لحلّ المشكلات الحزبية، وإلى جانبها معالجة بعض معاناة شعبكم، إلا أنّ هذا المقدار ـ بحد ذاته ـ جدير بأن تقدّر فيه شجاعتكم في إعادة النظر بالمذهب الفكريّ الذي كبّل الثوريين في العالم بقيوده الحديدية لسنين متمادية.

وإذا كنتم تفكّرون في أبعد مما ذكر فإنّ القضية الأولى التي ستكون ـ بالتأكيد ـ سبباً لنجاحكم هي أن تعيدوا النظر في سياسة أسلافكم المتمحورة حول محاربة الله واستئصال الدين من المجتمع، فهذه السياسة ـ بلا شك ـ هي التي وجّهت أكبر ضربة للشعب السوفياتي، واعلموا أنَّ التعامل الواقعي مع القضايا العالميّة لا يتأتى إلا عن هذا الطريق.

ومن الممكن أن يبدو العالم الغربيّ أمامكم ونتيجة الأساليب الخاطئة والسياسات المنحرفة لأقطاب الشيوعية السابقين في القطاع الاقتصادي وكأنّه جنان خضر، بيد أنّ الحقيقة تكمن في مكان آخر.

إنّكم إذا أردتم ـ في هذه المرحلة ـ أن تحصروا جهودكم لحلّ العقد المستعصية في الاقتصاد الاشتراكيّ والشيوعية باللّجوء إلى مركز الرأسمالية الغربيّة، فاعلموا أنّ نتيجة ذلك لن تبقى محدودة في العجز عن معالجة أيّ شيء من آلام شعبكم، بل ستتجاوز ذلك إلى إيجاد حالة تستلزم مجيء من يعالج آثار أخطائكم هذه المرة؛ لأنّ العالم الغربيّ هو الآخر مُبتلى بمثل ما ابتُليت به الماركسيّة اليوم من

وصول مناهج تعاملها مع القضايا الاقتصاديّة والاجتماعيّة إلى طريق مسدود، بل إنّه يعاني من مشاكل أخرى أيضاً؛ ولكن بشكل آخر.

حضرة السيد غورباتشوف!

ينبغي الالتفاف إلى حقيقةٍ أنّ مشكلة بلدكم الأساسيّة لا تكمن في قضايا المُلكية والاقتصاد والحريّة، بل إنّ مشكلتكم تكمن في فقدان الإيمان الحقيقيّ بالله، وهي نفس مشكلة العالم الغربيّ التي قادته أو ستقوده إلى الانحطاط والطريق المسدود. إن أزمتكم الحقيقية تكمن في محاربتكم الطويلة والعقيمة لله ولمبدأ الوجود والخلق.

حضرة السيد غورباتشوف!

لقد اتّضح للجميع أنّ البحث عن الشيوعيّة يجب أن يتوجّه ـ من الآن فصاعداً ـ إلى متاحف التاريخ السياسي العالمي؛ لأنّ الماركسيّة لا تلبّي شيئاً من احتياجات الإنسان الحقيقية؛ لأنها مذهب مادّي ولا يمكن بالمادية إنقاذ البشرية من المأزق الذي أوجده فقدان الإيمان بالمعنويات. والذي يمثّل العلّة الأساس لما تعانيه المجتمعات البشريّة في الشرق والغرب.

حضرة السيد غورباتشوف!

من المحتمل على نحو من (الإثبات) أن لا تكونوا بصدد الإعراض عن بعض جوانب الماركسية، وأن تُظهروا عبر مقابلاتكم ـ مستقبلاً ـ إيمانكم الكامل بها، ولكنكم أنفسكم تعلمون على نحو (الثبوت) أن الواقع غير ذلك.

لقد وجّه الزعيم الصيني الضربة الأولى للشيوعية، وها أنتم توجّهون الثانية، ويبدو أنها القاضية فلم يعد اليوم ـ في عالمنا المعاصر ـ شيء يوجد باسم (الشيوعية) ولكنّي أطلب منكم ـ بإلحاح

ـ أن تحذروا الوقوع في سجن الغرب والشيطان الأكبر وأنتم تحطّمون جدران أوهام الماركسية.

آمل أن تنالوا الشرف الحقيقي لإنجاز مهمّة استئصال آخر الأعشاش المتهرّئة لحقبة السبعين عاماً من انحراف العالم الشيوعيّ من وجه التأريخ ومن بلدكم.

واليوم، فإن الحكومات الحليفة لكم والتي تخفق قلوبها لمصالح أوطانها وشعوبها، لن تكون أبداً على استعداد أكثر من هذا لهدر ثرواتها الجوفية والطبيعية من أجل تثبيت نجاح الشيوعية بعدما وصل صدى تهشّم عظام الشيوعية إلى أسماع أبناء تلك البلدان.

السيد غورباتشوف!

عندما تعالى نداء (الله أكبر) وإعلان الشهادة برسالة خاتم الأنبياء (ص) من مآذن المساجد في بعض جمهورياتكم بعد سبعين عاماً، انهمرت دموع الشوق من عيون أنصار الإسلام المحمدي الأصيل كافة، الأمر الذي ألزمني أن أذكّركم بضرورة إعادة النظر في الفلسفة المادية والإلهيّة.

لقد وضع الماديّون في فلسفتهم تجاه قضايا الكون (الحس) معياراً للمعرفة فاعتبروا الشيء غير المحسوس خارجاً عن دائرة العلم، واعتبروا الوجود قرين المادة الملازم لها، فما لا مادة له لا وجود له، ولهذا اعتَبروا ـ طبعاً ـ أنّ عالم الغيب ـ كوجود الله تبارك وتعالى والوحي والنبوّة والمعاد، ضرب من الأساطير في حين أنّ معيار المعرفة في الفلسفة الإلهيّة يشمل الحسّ والعقل فيدخل المعقول أي المدرك بالعقل دائرة العلم، حتى وإن كان غير محسوس؛ لذا فإنّ الوجود يشمل عالمَيْ الغيب والشهادة، فبالإمكان أن يكون لما لا مادة له وجود، وكما أن الوجود المادي يستند إلى

المجرّد، كذلك حال المعرفة الحسّية فهي مستندة إلى المعرفة العقلية.

والقرآن الكريم ينتقد أساس التفكير والفلسفة الماديّة، ويردّ على الذين يتوهّمون عدم وجود الله استناداً إلى أنّه لو كان موجوداً لشوهد... ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ يرد عليهم قائلا: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

وحيث نمر على القرآن العزيز الكريم واستدلالاته في ما يرتبط بقضايا الوحي والنبوة والمعاد وهي من وجهة نظركم ـ أول البحث ـ فإني لم أرغب في أن أزجّكم في تعقيدات مباحث الفلاسفة وتشعبّاتهم ـ خاصة الإسلاميّين منهم ـ لذا أكتفي بمثالين بسيطين اخترتهما لإمكان إدراكهما فطرياً ووجدانياً، ويستطيع السياسيون أيضاً الانتفاع بهما.

فمن البديهيات أن المادة والجسد مهما كانا فهما جاهلان بذاتهما، فالتمثال الحجري والجسم المادي للإنسان لا يعلم أي من شطريه بحال الشطر الآخر، لكننا نشهد عياناً أن الإنسان وكذلك الحيوان مطّلع على ما حوله من الجهات كافة، فهو يعلم أين هو، وماذا يجري حوله، كما يعلم أيّة ضجة تلف العالم. إذن فهناك في الحيوان كما في الإنسان شيء آخر فوق المادة ومن غير عالمها وهو باقٍ لا يموت بموتها.

إنّ الإنسان بفطرته يطلب كلّ كمال ـ بصورته المطلقة ـ وأنتم تعرفون جيداً أنّ الإنسان ينزع إلى أن يكون القوّة المطلقة في العالم، فلا يعلق بأيّة قوة ناقصة محدودة ولو أنّه امتلك العالم كلّه وقيل له: إن هناك عالماً آخر لَمالَ فطرياً إلى إخضاع ذلك العالم أيضاً لسلطانه.

ومهما بلغ الإنسان من العلم، وقيل له إنّ هناك علوماً أخرى لَمالَ ـ مدفوعاً بفطرته ـ إلى تعلّمها، إذن فلابد من أن تكون هناك قوة مطلقة وعلم مطلق ليتعلّق بهما، وهذا هو الله تبارك وتعالى الذي إليه نتوجه جميعاً حتى لو كنا أنفسنا نجهل ذلك.

إنّ الإنسان يريد الوصول إلى «الحق المطلق» ويفنى فيه، وإن هذا الشوق إلى الحياة الأبدية والمتأصل في فطرة كلّ إنسان هو ـ في الأساس ـ دليلٌ على وجود عالم الخلود المنزّه عن الموت.

وإذا رغب فخامتكم في البحث حول هذه الأمور فيمكنكم أن تأمروا المختصين في هذه العلوم لديكم بأن يُراجعوا ـ إضافة إلى كتب الفلاسفة الغربيين ـ مؤلّفات الفارابي وأبي علي بن سينا في حكمة فلسفة المشّائيين ليتّضح لكم أنّ قانون «العلة والمعلول» الذي تستند إليه كلّ معرفة هو معقول وليس محسوساً، وليتضح أيضاً أنّ إدراك المعاني والمفاهيم الكلّية والقوانين العامة هو عقلي وليس حسياً رغم أن جميع أشكال الاستدلال ـ حسياً كان أم عقلياً ـ تعتمد عليه.

كما يمكنهم الرجوع إلى كتب السهروردي في حكمة فلسفة الإشراق، لكي يشرحوا لكم كيف أن الجسم وكلّ موجود مادي يفتقر إلى النور المطلق المنزّه عن أن يُدرك بالحس، وأنّ الإدراك الشهودي مكّن نفس الإنسان لحقيقته منزه أيضاً من الظواهر الحسّية.

كما بإمكانكم أن تطلبوا من كبار الأساتذة أن يُراجعوا أسفار الحكمة المتعالية لصدر المتألهين(رض)، وحشره مع النبيّين والصالحين لكي يتّضح لكم أنّ حقيقة العلم هي ذلك الوجود المجرّد عن المادة، وأنّ كلّ معرفة منزهة عن المادة ولن تخضع لأحكامها.

ولا أتعبكم فلا أتطرق إلى كتب العارفين، ولا سيما محي الدين

ابن عربي فإذا أردتم الاطلاع على بحوث هذا العظيم، فيمكنكم أن تختاروا عدداً من خبرائكم من الأذكياء الذين لهم باع طويل في أمثال هذه البحوث، وترسلوهم إلى قم ليتعرّفوا بالتوكّل على الله، وبعد عدة سنين على العمق الحساس والدقيق غاية الدقة لمنازل المعرفة، ذلك أنّه من المحال الوصول إلى هذه المعرفة دون هذا السفر.

حضرة السيد غورباتشوف!

والآن وبعد ذكر هذه القضايا وتلك المقدّمات أطلب منكم أن تحقّقوا بدقة وجدية حول الإسلام، ليس لأنَّ الإسلام والمسلمين بحاجة إليكم، بل لما يتضمّنه الإسلام من قِيَم سامية ولما يمتاز به من شمولية؛ بحيث يستطيع أن يكون طريقاً لراحة وإنقاذ الشعوب، وحلّ كافة الأزمات الأساسية التي تعاني منها البشرية.

إن التدبّر والأهتمام الجاد بالإسلام يمكن أن ينقذكم وإلى الأبد من مشكلتكم في أفغانستان وأمثالها في العالم.

إننا نعتبر مسلمي العالم كافة مثل مسلمي بلدنا، ونرى أنفسنا على الدوام شركاء لهم في مصيرهم.

لقد أثبتم عبر منح الحرّية النسبية في أداء الشعائر الدينية في بعض الجمهوريات السوفياتية أنكم لم تعودوا تفكّرون بأنّ «الدين أفيون الشعوب».

أحقاً إن الدين الذي جعل إيران تصمد أمام القوى الكبرى كالجبل الشامخ هو أفيون الشعوب؟!

وهل أنّ الدين الذي يُطالب بتحكيم العدالة في العالم، وبتحرير الإنسان من كافة أشكال القيود الماديّة والمعنويّة هو أفيون الشعوب؟!

نعم؛ إنّ الدين الذي يتحوّل إلى أداة من أجل نهب ثروات البلدان الإسلاميّة وغير الإسلاميّة ومقدَّراتها الماديّة والمعنويّة من قبل القوى الكُبرى السلطوية، والدين الذي يصمّ أسماع الجماهير بمقولة فصل الدين عن السياسة هو أفيون الشعوب، ولكن هذا الدين، ليس هوالدين الحقيقي، بل هو ما تُسميه جماهيرنا بـ«الدين الأمريكي».

وختاماً، فإنني أعلنها صراحة بأنّ الجمهورية الإسلاميّة في إيران، وباعتبارها أكبر وأقوى قاعدة للعالم الإسلاميّ، تستطيع وبكلّ سهولة أن تسدّ الفراغ العقائدي في نظامكم.

وعلى أيّ حال فإن بلدنا ـ وكما كان في السابق ـ سيظلّ يُؤمن بمبادئ حسن الجوار والعلاقات المتكافئة، ويحترم هذه المبادئ.

والسلام على من اتّبع الهدى

روح الله الموسوي الخميني»

هذا هو النص الكامل للرسالة الشهيرة من الزعيم الثوري الإيرانيّ إلى زعيم إحدى القوتين العظميين اللتين كانتا تحكمان العالم، وقد توخّينا نشرها بالكامل باعتبارها وثيقة تاريخية سيتمّ الرجوع إليها دون شك لكلّ من يريد التأريخ لتلك المرحلة العالميّة المضطربة، ونحن نريد أن نستخلص منها أهم ما نعتقده مهماً، ونترك للباحثين أن يستخلصوا استنتاجاتهم الخاصة بهم.

وكشاهد على العصر ولمعرفتي التي أزعم أنها تُلامس طريقة تفكير الزعيم الراحل ومنهجه في إرسال الرسائل، أقرأ أهم ما في هذه الرسالة من دلالات سياسية تاركاً للباحثين المزيد:

أولاً: لقد أراد الزعيم الثوريّ الإيرانيّ الذي كان خارجاً لتوّه من «شرب العلقم» من الحرب الدولية التي فُرِضت عليه من بوّابة

العراق مدّة ثمان سنوات عجاف، أراد أن يقول لشعبه كما للرأي العام العالمي إنّ الثورة لا تزال في أوج اقتدارها، وأنّ القيادة التي وافقت على وقف إطلاق النار تحت ظروف قاهرة، لم ولن تنحني لمعادلة القوى العظمى التي خطّطت للحرب كما خطّطت لوقفها. وبالتالي، فهي تنقل المعركة اليوم من ميدان إلى ميدان، ومن مستوى إلى مستوى، وكما انتصرت في الميدان الجهاديّ العسكريّ من خلال إفشال أهداف الغزو العدوان، فإنّ ملامح انتصارها في ميدان الفكر والروح يلوحان في الأفق أيضاً!

ثانياً: لقد أراد الزعيم الثوريّ الإيرانيّ أن يوصل رسالة واضحة وصريحة وشفافة إلى قادة العالم «الآخر» عبر غورباتشوف، وهي أنّ أهداف الثورة الإسلاميّة الحقيقية التي قادها، لم تكن من أجل إيران فحسب، بل هي أيضاً رسالة عامة وشاملة تهدف إلى تغيير قواعد التعامل في العالم، وإصلاح منهجية التعاطي مع قضاياه كلها دون استثناء، وبالتالي الحاجة إلى المراجعة الشاملة في كلّ شي في المعادلات الدولية!

ثالثاً: لقد أراد الزعيم الثوريّ الإيرانيّ أن ينبّه ويستشرف ويحذّر قادة الكرملين، الآن وقد وضعوا أقدامهم على طريق التغيير والإصلاح؛ كي لا يقعوا فريسة الخداع والتضليل الأميركي بخاصة والغربيّ الرأسماليّ الماديّ بعامة، من الوقوع في فخّ أو أفخاخ ما كان يحضّر له من استيلاء نهائيّ على العالم عبر خدعة مقولات الحرّيات العامة، وحقوق الإنسان، والديمقراطية الليبرالية التي تبلورت في ما بعد بمقولتَيْ نهاية التاريخ والعولمة، وهو الأمر الذي أثبت عمق وبُعد النظرة الثاقبة التي كان يتحلّى بها الزعيم الإيرانيّ، وصوابية بعد نظره، ونحن نشهد اليوم انهيارات المقولتين وبدايات الصحوة الروسية وانتباهها ولو متأخراً لتلك الأفخاخ!

رابعاً: لقد أراد الزعيم الثوريّ الإيرانيّ، وهو المسكون منذ بداية تحرّكه وانطلاقة نهضته بتقديم قراءة خارجة على المألوف والتقليد والمشهور من التفاسير للدين والعقيدة الإسلاميّة، أراد وضع الحدّ الفاصل. بين ما كان يُروّج له طوال حياته وهوما سماه هو بالإسلام المحمّديّ الأصيل الذي يعتبره لصيقاً بالشأن السياسي وفقه الحكم وأمر بناء الدولة وضروراتها؛ والمفهوم الذي أخذ تسمية الإسلام السياسي في ما بعد، وبين «الإسلام» الانتظاري السلبي والاتكالي والطقوسي والتخديري والمنفصل عن نظام الحياة العامة الذي تعمّد سماحته أن يطلق عليه صفة الإسلام الأميركي، أو ما سمّاه بالدين الأميركي على العموم كما جاء في الرسالة محلّ بحثنا!

خامساً: أراد الإمام الخمينيّ أن يترك الباب مفتوحاً أمام غورباتشوف وحاشيته وكل من يفكر أن يطرق باب المراجعات الفكريّة، ليدركوا أنّ طرق الوصول إلى الله المتمثل بالحقيقة االكلية إنما هي بعدد أنفاس الخلائق كما يقول العرفاء، بمعنى آخر فإنّ الوصول إلى معرفة الله حق معرفته لا تتمّ بالضرورة عبر الأساليب والطرق الفقهيّة أو البحثيّة التقليدية التي اعتاد عليها أو طرق بابها المسلمون التقليديّون فقط.

سادساً: أراد أن يقول لغورباتشوف، وبكل تواضع، وعبره لكلّ زعماء العالم، إن ما تنكرونه اليوم لا بد وأنكم مكتشفوه غداً وأنّ ما تسعى طهران إلى تأسيسه من نظام حكمٍ، والقِيَم التي تدعو إليها ليس نابعاً من دين جاءت دعوته منحصرةً بعرق أو قومية أو طائفة بعينها، ولا يقوم على عقيدة عنصريّة، بل هي منظومة إنسانية تحرّرية كلّ من وَلَجها نجا، وكل من تخلّف عنها وقع في الهاوية!

سابعاً: أراد الإمام أن يقول لغورباتشوف وعبره للعالم أجمع، إنّ دين الإسلام هو دين حوار وجدال بالتي هي أحسن، وليس دين

إكراه أو فرض، وإنّ البحث عن الحقيقة والوصول إليها جزئياً أو كلياً ممكن جداً من خلال التبحّر بالمعرفة والتحقيق العلمي، وهو أمر مُتاح حتّى لأولئك الذين لم تَلِدْهُم أمهاتهم مؤمنين أو مسلمين؛ ذلك أن الحقيقة ليست حكراً على أحد، والوصول إليها ممكن، والمسلمون منفتحون على الآخر في رحلة الحياة المتشعّبة والمتشابكة والطويلة هذه مهما كانت التحدّيات.

8

فقه المَعَاد وفقه المَعَاش

الدين، الفقه، السياسة، الجهاد، الثورة، المذهب، رجال الدين، المعمّمون، الحوزة، الجامعة، الشعب، الجماهير، السلطة، الحكم... وعشرات أخرى من المقولات والمفاهيم يمكن أن نُضيفها إلى قاموس الرجل المثير للجدل الإمام الخمينيّ وهو يتكلّم أو يشرح أو يفسّر أو يقدّم عرضه الخاص لهذه المقولات في مسيرة الحياة وعلاقتها بعضها بالبعض الآخر وفهمه الخاص لها، والذي إذا ما تابعناه وتّتبعانه سنكتشف أنّ لديه قراءة أقلّ ما نقول فيها إنّها متفاوتة عما اعتدنا على سماعه من نظرائه من رجال الدين أو المراجع الدينية العليا، ناهيك عن زعماء السياسة والاجتماع من محترفي فَنّ التلاعب بالخطاب ممّن جرّبوا النزال السياسيّ والاجتماعيّ!

بكلمة واحدة تستطيع أن تقول، وبكل تأكيد، إنّه قام بتدوين قاموسه الخاص لمفاهيم علوم الدين والاجتماع والسياسة واضعاً إيّاها في منظومة خاصة من التفكير يمكن إدراجها بكلّ جرأة في

خانة التجديد الديني العميق، أو إعادة صياغة فكرٍ دينيّ جديد، بل بالأحرى تحرير الدين ومفاهيم علم الاجتماع الديني من النمطية والقوقعة التاريخيّة التقليديّة المألوفة لسمع وبصر العامّة، وإطلاق منظومة مبدعة بالمقابل، إطارها الحضارة البشرية السمحة، ومضمونها العميق السير في عالم الحياة الإنسانية مترجماً بذلك سيرة الرسول الأكرم ونبي الرحمة وخاتم الأنبياء والرسل بعنوانه الشهير: يمشي في الأسواق ويأكل الطعام مع الناس!

فالرجل لم يقبل منذ اليوم الأوّل ذلك «الفصام النكد» الذي حاول الاستعمار زرعه مبكراً بين الدين والحياة، وتالياً بين الدين ونظام الحكم، في مسعى خبيث لإبقاء يده وبطانته مفتوحة في التحكّم بثروات الشعوب والأمم ومقدّراتها، وهو عمل على دعم وإسناد طلاب الدِّعة والراحة والمتهالكين على العافية الشخصية بأي ثمن كان حتّى لو حوّلوا دين الله إلى مجرّد علاقة شخصية وروحية محضة بين الفرد وربه، بينما أخرج اخراج علماء الدين الحقيقيين والثوار من المتديّنين المطالبين بضرورة الدفاع عن قضايا الناس وزادهم ومعاشهم والمتمردين على قانون غلبة المستبدّين وناهبي ثروات الشعوب، مغلولة أيديهم ولا حول ولا قوة لهم!

يقول الإمام الخميني في أحد بياناته الشهيرة بتاريخ 15 رجب من العام 1409 للهجرة بصريح العبارة:

«ينبغي علينا الحذر من تسرّب أفكار فصل الدين عن السياسة والحكم من تضاريس بطانة أهل الجمود والتكلّس إلى طلبة العلوم الدينية من الشباب، حتى لا تتحوّل هذه الطعنة ومع الأسف إلى درجة من القوّة والنفوذ بين أهل الحوزة والعلماء؛ بحيث يصبح التدخّل في السياسة أمراً دون شأن الفقيه، وكأن التدخّل في معترك السياسة مصاحب لتهمة الارتباط بالأجانب!».

أو كما جاء في قولته الشهيرة في كتابه «الحكومة الإسلاميّة» بصراحة صراحة العارف بعمق المؤامرة:

«إن المؤسّسات الاستعمارية كلّها قد وسوست في صدور الناس أنّ الدين لا يلتقي مع السياسة، وأنّ العلماء ليس لهم أن يتدخّلوا في الشؤون الاجتماعية، كما أن ليس من حق الفقهاء أن يعملوا لتقرير مصير الأمة، ومن المؤسف جداً أن بعضنا قد صدّق تلك الأباطيل، وبذلك يكون قد تحقّق من خلال هذا التصديق أكبر أمل كانت تحلم به نفوس المستعمرين».

ولما أرادوا نقل التجربة الاستعمارية الخبيثة والمقيتة من أوروبا التي تنازع فيها أهل الملك مع أهل الكنيسة على المصالح الفئوية على حساب الدين القيم، وعلى حساب دين الله المسدّد، كما ورد في مسلكيّة المسيح الثائر والطارد للصوص الهيكل، تصدّى لهم هذا الرجل العظيم من جديد، وكان لهم مرة أخرى بالمرصاد، كما ورد في كلامه الشهير في وصيّته التاريخية الخالدة هذه المرة قوله:

«إن ما قيل ويُقال من أن اهتمام الأنبياء محدود بالأمور المعنويّة، وأن شؤون الحكم وإدارة الأمور الدنيوية عمل منبوذ اجتنبه الأنبياء والأولياء والصالحون وأنّ علينا أن نتجنّبه، ما هو في الواقع إلا خطأً مؤسفٌ يؤدّي إلى تلاشي الشعوب الإسلاميّة وفتح الباب أمام المستعمرين من ناهبي ثروات العالم...».

بهذه الكلمات الفصيحة والصريحة والشفافة يكون الإمام عملياً قد نقل عالِم الدين ومنظومة المفاهيم التي بها يؤمن وعليها يتّكئ في الحياة، من مجرّد مُفتٍ في دار الإفتاء أو موظف في وزارة الأوقاف كما يحب الساسة التقليديّون ويرغبون أن يروه، أو مجرّد عابد في صومعة كما يحب أهل الدِعة والراحة وطلب العافية الشخصية أن يروه، إلى مرجعيّة أساسية للأمة، وقائد مسدّد لجمهور العامّة من

الناس، وحاكم مبسوط اليد لتحكيم شريعة الله ودينه وسُنُنه الكونية التي لا تقبل التلاعب، وأخيراً وليس آخراً إلى صاحب مشروع حضاريّ إنسانيّ نهضويّ مجدّد للدين كما للدنيا بكلّ ما تعني الدنيا من شؤون من فقه المعاملات إلى عالم السينما والموسيقى والشطرنج والدفع بكلّ فئات الشعب بمن فيهم المرأة أخت الرجال كما شهد له التاريخ!

لكن هذا الرجل الذي دعا إلى هذه الرابطة العضوية والعميقة بين الدين ونظام الحكم وتالياً السياسة والحياة، لم ينسَ أن ينبّه في الوقت نفسه من خطر إغراءات السلطة وغريزة التهالك على المواقع والامتيازات والاعتبارات الصُوَرية والواهمة، وحتّى لا يتحوّل العمل السياسيّ من مسؤولية خطيرة يتكلّف بها عالم الدين في خدمة الناس إلى تشريف وهميّ زائفٍ أو حرفةٍ رخيصةٍ يُستدرج إليها فَيَتَهاوى في بحر السياسة الآسن، وما قد يحتويه من آفات قد تقود إلى الهلاك والدمار وخراب بيوت الناس وبيت الله أي الدنيا والدين معاً، حتى لا يتحوّل العمل السياسي إلى هذه الصورة قال الرجل بوضوح قولته الشهيرة في وصيّته التاريخية:

«إن علينا اليقظة والحذر ومراقبة محترفي السياسة المرتبطين بالشرق والغرب؛ ذلك أن الهدف من بعث الرسل هو كبح جماح النفوس الطاغية الباغية، ومنعها من الطغيان والبغي وتزكيتها. والاختلاف والصراع إنّما يحصلان بين الناس من عدم التزكية؛ لأنّ من تزكّى لا يطغى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾، وأن الخلافات التي تدور حول الشؤون الدنيوية منشأها جميعاً من الطغيان في النفوس....»

وفي مكان آخر يربط سماحته بين الأمرين؛ أي أمر الدين والدنيا، بصورة فذّة ومبدعة، حيث يقول:

«الدين أساس والسلطان حارس، فما لا أساس له فهو مهدوم، وما لا حارس له فهو ضائع»!

وهو بهذا المزج البديع والجريء إنّما يذكّرنا بتلك القاعدة الفقهيّة الشهيرة في كتب أصول الفقه الشيعية مجتمعة، وهي نفسها المقولة العظيمة التي يبدأ بها العلاّمة الكبير محمد الكليني صاحب كتاب «الأمالي» وذلك في الجملة الأولى من الفصل الأول من الباب الأول لكتابه حيث يقول:

«ما حكم به الشرع حكم به العقل وما حكم به العقل حكم به الشرع»

وممّا لا شكّ فيه أنّ هذه الثنائية المتّحدة والمتصالحة مع نظام السُنُن الكونية بشكل عضوي لا انفكاك له، والتي يشرحها ذلك العالم الرباني الكبير قبل نحو ألف عام باعتبارها أساس نظام الحياة، هي نفسها التي يستنهضها مرة أخرى ذلك الرجل الثمانيني الثائر في نهايات القرن الميلادي العشرين ويعتبرها أساساً ضرورياً لإخراج العالم الإسلاميّ من غفلته ونومه أولاً، ومن ثم ليدفع به مرة أخرى إلى ساحات العمل والنشاط، وليضخّ في عروقه نبض الحياة العجين بالإيمان وأخلاق التديّن الحيوية والمعطاءة.!

وعندما يصبح الفرق كبيراً وبهذا الحجم بين علماء الدين الربانيين الذين يعيشون للدين وفي الدين ومن أجل الدين؛ ولكن في قلب حركة الناس ومن أجل تحسين معيشتهم اليومية وعيشهم الكريم بكل عزة وكرامة، وبين فقهاء البلاط ووُعّاظ السلاطين الذين يرتزقون بالدين ويعتاشون عليه، وتتّسع الهوة بينهم إلى الدرجة التي يصبح فيها الفريق الأول حارساً لدين الناس ودنياهم، ومساهماً في النهضة الإنسانيّة جنباً إلى جنب مع سائر أفراد الأسرة البشريّة، فيما يصبح الفريق الثاني مضيعا لدين الناس ودنياهم، وحارساً أميناً لنظام

التسلّط والهيمنة على مقدّرات الناس والمتحكّم بدين الناس ودنياهم، عندها وعندها فقط نفهم الكلام الذي لطالما ورد على لسان الإمام الخميني حيث يقول عن الفريق الثاني الآنف الذكر:

«إن المرارة التي تجرعها أبوكم الشيخ من أمثال هؤلاء المتحجرين كانت أضعافاً مضاعفة من الصعاب والضغوط التي جاءت من غيرهم» إلى أن يقول:

«إن فقهاء البلاط هؤلاء أسوأ من الطغاة، بل حتّى أسوأ من الشمر. . . .» (قاتل الحسين)!

إنها معركة قاسية إذن بين فريقين متواجهين متعارضين في كلّ شيء تقريباً، وما بينهما من نزاع ليس سوى اختلاف منهجي بين مدرستين ومنهجين مختلفين تماماً، منهج يريد الفصل بين الدين ونظام الحكم وتالياً الحياة، وهو ما سينعكس منه منظومة متكاملة من المفاهيم التخديرية للناس من جهة، وبما يفتح المجال واسعاً أمام أرباب السطة والتحكم بمصائر الناس؛ لأن يوظفوا الدين في خدمة السلطان وليتجنّوا على الدين ويتّهموه أفيون الشعوب من جهة أخرى.

ومنهج آخر يجمع بين الدين ونظام الحكم بقاعدة الأساس والحارس التي أشار اليها الإمام الخميني كما وردت آنفا، بشكل متعاضد وبصورة الصمامان اللذان لا ينفصمان، وهو ما سينعكس عنه بالتأكيد منظومة متكاملة أخرى مختلفة عن سابقتها من المفاهيم الحية والمتحركة والجدلية والمتغيرة التي تأخذ روحها من روح الحياة المتنوعة والمتعددة التي كلّ يوم هي في شأن، بما يفتح المجال واسعاً أمام الاجتهاد واستنباط الأحكام الملائمة للزمان والمكان والتضحية بالنفس بما يخدم دين الناس ودنياهم بعيداً عن أهواء السلطان وأرباب الثروة والمال وحب الجاه والدنيا من رجال

دين ودنيا مزّيفين لا يهمّهم مصائر الناس ما دامت حياتهم الخاصة مضمونة ومُصانة في صندوق الأحكام السلطانية!

من جانب آخر، يلاحظ أيّ متابع متعمّق في سير وسلوك حركة الإمام الخميني مع أصحابه وتلامذته وطلّابه منذ انطلاقته الأولى، مروراً، بعيشه في الغربة في النجف الأشرف في العراق، وصولاً إلى عودته المظفرة إلى طهران، يلاحظ بوضوح لا يقبل الشك والترديد أنّ الرجل بقدر ما كان يهتم ويحرص على الدفاع عن المبادئ التي من أجلها أطلق العنان لتمّرده وثورته على الطغيان، كان مهتماً بأصغر حاجات طلابه المادّية والحياتية، حتى يتفرّغوا لتحصيل العلم ومتابعة الدراسة بفراغة بال كاملة، فكان بشهادة كلّ من عرفوه أو تتلمذوا على يديه كريماً ومغدقاً على الدارسين عليه بالمال الكافي على امتداد الأعوام والعقود المتتالية، ولم يكن ليترك المال القادم إليه من التجّار والمتبّرعين ومسدّدي الخُمس والزكاة يجتمع عنده ويتراكم، كما كان يفعل العديد من أقرانه؛ حتى أصبح مُحرجاً لهم في كثير من المراحل.

في هذا السياق يحكي أحد المقرَّبين من الإمام ممن رافقه طوال سنوات النفي والغربة في العراق، أنّ سماحته كان يزيد من رواتب الطلبة كلما زادت الكميات الواصلة إليه من الجهات المختلفة، حتى وصل راتب الطالب الدارس على يديه في مرحلة من المراحل إلى مائة دينار شهرياً، في حين أنّ أعلى راتب كان يدفعه أقرانه هو خمسون ديناراً، وفي المراحل المتأخِّرة من وجوده في العراق مع حصول الطفرة النفطيّة الشهيرة وصل راتب الطالب إلى ما يقارب المائتي دينار عراقي، وهو رقمٌ كبيرٌ جداً إذا كنا نعرف أنّ راتب أكبر أستاذ جامعي آنذاك لم يتجاوز المائة وثلاثين ديناراً، الأمر الذي كان قد أحرج كلّ جامعي المالِ ومكدّسيه من المراجع ممّن لم يكن

ليعنيهم طالب العلم بقدر ما كان يعنيهم هيبة وقوّته واقتداره المرجع، هذا مضافاً إلى أنّ الإمام الخميني هو الوحيد الذي وحّد مستوى الرواتب بين كلّ أصناف الطلبة من إيرانيين وعراقيين أو لبنانيين أو باكستانيين أو أفغان، في حين كان غيره يفرّق بين الأجناسِ في المستوياتِ المادية، وهكذا يكون الرجل قد مزج فعلاً بين فقه المعاد وفقه المعاش من خلال اهتمامه الجدّي بدنياهم تماماً كاهتمامه بتربيتهم ليوم القومة الشعبيّة المنتظرة، فكان تلامذته وطلابه فدائيين قولاً وعملاً يلبّون النداء عند المهمّات، فيما كان أتباع الآخرين يتذمّرون منهم لو دخلوا في أيّة معركة مهما كانت بسيطة كما مر ذكره في الحوار الذي دار بين الرجل وأحد أقرانه من كبار مراجع القوم الذي أقر وأذعن بأنّه لو اختار القيام لما سار خلفه أحد، إن لم يكن ذلك سبباً لانفضاض مَنْ حوله كما قال.

وثمّة تجربة حيّة أخرى قام بها الإمام الخميني هي اهتمامه الخاص بعمال النفط الذين لبوا نداءه وأعلنوا الإضراب تضامناً مع سائر قطاعات الشعب التي فجّرت الثورة ضد الشاه المخلوع؛ إذ من المعروف أنّه سرعان ما شكّل لجنة خاصة من المهندسين والمختصين ورجال الدين للاهتمام بتسيير أمور هؤلاء العمال طوال فترة الإضراب التي استمرت أشهراً، ما جعل فكرة الإضراب تبقى صامدة لا تتزعزع من جهة، والحياة الطبيعية للناس تمضي وكأنّ شيئاً لم يحدث من جهة أخرى، مضافاً إلى تشجيعها سائر فئات الشعب وطبقاته على الالتحاق بالثورة، بعدما تأكّد لها أنَّ القائد سيحميها ويحمي أفراد الأسرة مجتمعين.

ولم تكن فكرة تشكيل مؤسّسة الشهيد الخاصة برعاية أُسَر الشهداء من المجاهدين والمحاربين الذين سقطوا دفاعاً عن الوطن، منذ انطلاق الثورة إلى اندلاع الحرب العراقية والعالمية التي فُرِضت

على الدولة الفتية، لم تكن هذه المؤسسة إلّا درساً إضافياً لمقولة فقه المَعَاد وفقه المَعَاش، وهو الأمر الذي لا يزال ساري المفعول حتى الآن، ولا تتجرّأ أيّة حكومة نفض يدها منه على الرغم من توالي الأيام والعقود، فالإمام الخميني أرسى دعائم هذه المؤسسة وأسّس بنيانها على قواعد ثابتةٍ وراسخةٍ، لا يتمكّن أحد من زعزعتها مهما علا مقامه؛ لأنها أصبحت جزءاً لا يتجزّأ من فكر الثورة وتراثها ودينها!

9

أدبيّات التعدّد في الوحدة وفقه التسامح والحوار

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾

سبحان رب العباد ما أروعه، وسبحان رب العزّة والجبروت ما أسهل الوصول إليه؛ إذ إنّ طرق الوصول إليه بعدد أنفاس الخلائق كما يقول العرفاء.

في هذا الإطار نرى الإمام الخميني الثائر والحازم في رسالته في الدفاع عن وحدة الدين في اصوله الإلهيّة والربانيّة يقول:

«إنّ الأنبياء إذا ما اجتمعوا في بلد واحد لا يختلفون ولا يتنازعون لأنهم زكّوا أنفسهم وتأدبوا جميعاً بآداب الله، ولأنهم تجاوزوا أهواءهم».

لكنّه هو نفسه الإمام المجدّد للدين والمطالب بإلحاح بضرورة

التغيير في ذلك الخطاب الديني التقليدي، يقول:

«ثمة اختلاف منهجي في طريقة التفكير لدى البشر، ولا بدّ للأمر من أن يكون كذلك؛ لأن طبائع الناس مختلفة، فإذا لم يكن هناك تباين في الأفكار فذلك نقص واضح، وإذا لم يكن هناك اختلاف في مجلسٍ ما فعليكم اعتبار ذلك المجلس ناقصاً... فالاختلافات ضرورية ولا بد منها؛ ولكنّها لا تعني الانشقاقات»

ونلمس هذه الروحيّة لدى الإمام عندما جاءه سماحة الشيخ الكروبي ذات مساء ليستمزج رأيه في ما إذا كان من حقّه وعدد من علماء الدين من تلامذته الانفصال عن رابطة علماء الدين المناضلين «روحانيت» نتيجة حصول اختلاف في المزاج الفكري والسياسي العام، يومها لم يكن يتوقّع قبول الإمام تلك العملية بتلك السلاسة التي قابله فيها بالإيجاب والموافقة، لاسيما وأنّ الأجواء في البلاد كانت غير مؤاتية كثيراً، والضغط الإعلامي والنفسي المحيط بالجماعة الجديدة التي يُراد لها أن تنفصل لم يكن على ما يرام؛ لكنّ العارف بخصائص الأمور وطبيعتها قال له: إنّ ذلك من حقكم، مضيفاً إنّ في ذلك غنى وفائدة ونفعاً، كما ينقل الرواة الموثقون!

ومن منا لا يتذكّر ذلك اللقاء الرائع الذي جمع الإمام بعدد من المثقّفين والمثقفات من رابطة الكتاب الإيرانيين بأطيافهم الفكريّة المختلفة، حتى أولئك الذين لم يكونوا يؤمنون حتى بنظام الحكم الديني، ناهيك عن إيمانهم بقيادة العلماء له، وكيف أنّ الإمام الثمانيني خاطبهم أول ما خاطبهم به: «إن النظام الشاهنشاهي البائد كان يعتمد الألاعيب الشيطانية لفصل المثقفين والمتدينين عن بعضهم البعض».

ومن منا لا يتذكّر كيف كان تأثير ذلك على الكاتبة الروائية الشهيرة سيمين دانشور التي لم تستطع في نهاية اللقاء أن تتمالك

شعورها الجارف، فاندفعت نحو الإمام مقبلة عباءته الشريفة، وكل ذلك تحت تأثير سحر حديثه الشيق، وجاذبيته المعنوية الخارقة، ونظرته المنفتحة التي قطعت كلّ المسافات التي كان يحاول الأعداء الخارجيّون آنذاك وبعض جَهَلة الخارج أن يضعوها بين ذلك الشيخ المجدّد والعارف، وبين أولئك الكتاب والمثقفّين من جيل الحداثة والعصر الجديد.

إنّها جرأة وشجاعة الإصلاحيّ والمجدّد الكبير الذي لا ترهبه لومة لائم، ولا تخيفه تعصبّات من قرّروا البقاء في بركة الجمود الفكري والعقائدي؛ لأنّه هو نفسه من تربّى في حوزة دينية متجدّدة لم تَر سوى الاجتهاد وسيلة للبتّ في القضايا المستحدثة والحوادث الواقعة، وعليه فإنّ من يقبل الاجتهاد في فقه المعاملات والحياة الاجتماعية لا بد له من أن يقبل ذلك في السياسة والفكر والثقافة والرواية والقصة والفن وسائر مناحي الحياة المتعدّدة الأبعاد.

أليس هو من أحفاد ذلك الإمام الهمام والمجدّد الأكبر للدين وخليفة المسلمين ومولاهم في النظر بعين اليقين الإمام علي (ع) حيث يقول: «**أضربوا بعض الرأي ببعض يتولّد منه الصواب، امحضوا الرأي محض السقاء....**»؟!، وهي نفسها الأدبيّات التي تجلّت أيضاً في قول ذلك الشاعر العربي إذ قال:

والضد يكشف عيبه الضد وبضدها تتميز الأشياء

بلى، إنها هي نفسها كذلك أدبيّات التعدّد وأدب الاختلاف وأدب الحوار في إطار الكثرة والوحدة، وهو الأمر الذي دفع بالإمام الخميني إلى قبول التعدّدية الحزبية في البلاد في محاولة جريئة وشجاعة وواضحة، الهدف منها إدارة شؤون الحكم والبلاد والعباد بشكل سلس أولاً وتكريس عملية تداول السلطة بشكل انسيابي ثانياً، حتّى لا تعود جرثومة الديكتاتوريّة، ولا يعود مرض الاستبداد المزمن

الذي لطالما ابتُليت به ثوراتٌ كثيرةٌ ومجتمعاتٌ عدَّةٌ، لطالما بدأت حركات إسلاميّة منها نهضتها بعنفوان كبير؛ لكنها سرعان ما تباطأت في تحقيق الإنجازات في ما بعد، إلى أن انسحبت من ميدان السباق بل إنّ بعضها انقرض نهائياً وخرج من سياقات التاريخ الصانع للأحداث!

إنّه فقه القبول بالآخر كما هو، وفقه تحمّل الاختلاف مهما كان صعباً شرط ألّا يتحوّل بالطبع إلى جدل مقيت وخلاف مستميت من أجل الذات لتُبْتَلى الأمّة بالشقاق والاقتتال على حساب الوحدة والاتحاد، فتفشل ويذهب ريحها، وذلك هو المذموم في الإسلام وليس الاختلاف في النظرة إلى الأمور وتعدّد طرائق في الوصول إلى الحقيقة!

أليس هذا الفقه الذي سار عليه شيخ التجديد والإصلاح، هو نفسه المستنبط من ذلك الأدب القرآني الرائع الذي يتجلّى بأروع صوره وأبلغها في قوله تعالى:

﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

انظروا إلى تلك المقايسة والمعادلة ما أبدعها وما أعدلها، فحين يتحدّث الله عن المؤمنين ينعت فعلهم بصفة الإجرام المحتمل، في حين أنّه عندما يتحدّث عن فعل الآخر المختلف معه، فإنه ينسب إليه فعلاً حيادياً يحتمل الخطأ كما يحتمل الصواب!

نعم إنّه هو نفسه القول الذي اشتهر على لسان الشافعي العظيم إذ يقول:

«إن رأيي صحيح يحتمل الخطأ ورأيك خطأ يحتمل الصواب».

إنه هو نفسه فقه التسامح والقبول بالتعدّد المستند إلى الأدب القريني العظيم؛ إذ يقول تعالى:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾، فإذا كان لا إكراه في الدين، فهل يمكن القبول بإكراه في طريقة التفكير التي يريد هذا البد أو ذاك أن يفرضها على عباد الله الآخرين؟!

﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾.

فالرجل الثمانيني المجدّد والمحيي للدين، كان يؤمن في الواقع تمام الإيمان بأنَّ الله تعالى ما أمر نبيّه فضلاً عن أنّه أمر عباده بإكراه أحدٍ على شيء، لا سيما في مجال الفكر والتضارب بين الرأي والرأي الآخر.

والذين عرفوه عن قرب أو عاشروه يعرفون تماماً كم غفر لكثيرين ممن كانوا على خلاف معه، وكم مرة اعترف بأنّه أخطأ هنا أو هناك، وقصة اعترافه بخطأ تسليم مقاليد الحكم إلى مجموعة حركة حرية إيران والمرحوم المهندس بازركان مشهورة جداً.

لكن الطريف والمليء بالمعاني أيضاً، هي تلك القصة التي ينقلها سماحة السيد هادي خسروشاهي عنه في ما يخص وجهة نظره بالمختلف معهم من أشد خصومه وأعدائه؛ إذ يقول:

ذهبت إلى الإمام يوماً لأسأله حول طلب استفتاء من عدد من الثوريين المتحمّسين الذين كانوا يُعدّون لاغتيال الرئيس المقال والمقيم في المنفى السيد أبو الحسن بني صدر، ومن آخرين يخطّطون لاغتيال زوجة الشاه المخلوع فرح ديبا، ووقتها كنت سفيراً في الفاتيكان، وفي ما يخص فرح ديبا قال لي الإمام ما مضمونه ولماذا يريدون اغتيالها، فهل كونها زوجة الشاه جرماً! وأمّا ما يتعلق ببني صدر، وعندما شرحت له أنَّهم يقولون إنّه ينشر جريدة في المنفى تهاجمك وتعارض النظام بشكل سافر، فقال لي: وهل قرأت أنت فيها شيئاً أو أمراً يدل على أنها تُنكر ركناً من أركان الدين

فقلت له لا، فقال: إذن ما المشكلة فالمعارضون لي موجودون هنا في الداخل أيضاً؛ الأمر الذي جعلني أفهم أن الرجل لا يقبل بمبدأ الاغتيالات للمعارضة والمعارضين.

وغنّي عن القول إنّ هذا الأمر في سياق سيرة الإمام الخميني كما عرفناه منذ نشأته الأولى ودخوله إلى ساحة العمل الديني والسياسي؛ إذ نشأ على مبادئ رفض الفتك والغدر، ونبذ العنف وسيلة لحسم الصراع السياسي مع الخصوم والأعداء، اللهم إلّا ما يتوجّب عليه أو يوجبه عليه مبدأ الدفاع عن النفس أو الجماعة الثَوريَّة في حالات القيام والثورة والانتفاضة الشعبية، أو استخدام مبدأ القصاص، أو تنفيذاً لأحكام قضائيّة صادرة عن سلطةٍ ودولة قائمة.

بناءً على ما تقدم، نستطيع القول باطمئنان كامل إنّ الرسالة التي حملها هذا المجدّد الكبير للفكر الديني من إيران في القرن المنصرم، هي رسالةُ فقهِ هو فقهُ الحوار، وأدبيّاتٍ هي أدبيّاتُ التعدّد والتسامح، على الرغم من اعتزازه وثباته على مبدأ الحزم والقصاص من القَتَلة والمجرمين؛ لأن في القصاص حياة لكم يا أولي الألباب!

10

المرأة أخت الرجال

يُشْهَد للإمام الخميني، وهو مرجع ديني أعلى للطائفة الشيعية المسلمة، بأنه كان من أوائل المراجع، إن لم يكن الأوّل الذي أطلق العنان للاجتهاد في مجال إعادة النظر في دور المرأة في حركة المجتمع، ما أفسح في المجال لتلامذته ورهطه وحوارييه في ما بعد ليجتهدوا في تقديم المزيد من التحّولات الضرورية، كما فتح الباب واسعاً في الواقع أمام آخرين ليتشجّعوا ويُدلوا بدلوهم في هذا المجال، وفي المقابل أغلق الباب بحزم تقريباً أمام التيار الرجعيّ الذي كان لا يزال ملتصقاً بالرؤية التقليدية والنمطية للمرأة، من أن يستعيد زمام المبادرة في أيّة مرحلة لاحقة للعودة بالإنجازات على هذا الصعيد إلى الوراء.

ومن أجل الاطلاع على آرائه بهذا الخصوص اخترنا باقة من عناوين نهجه وفكره، نوردها مختصرة كما يلي:

- **أرادوكِ «شيئاً» مثل سائر الأشياء، بل مجرّد لعبة أو متاع أو حتى سلعة تُباع وتُشترى في سوق نخاسة الرجال وهَوَ سهم الذي لا ينتهي عند حد!**

- أما الإسلام، فإنه يريد المرأة مثل الرجل، نعم مثل الرجل تماماً؛ أي أن تتدخّل وأن يكون لها رأي في كلّ شيء، نعم في كلّ شيء!

- لقد اثبتُنَّ أنتنّ النساء أنكنّ في الطليعة دائماً كتفاً إلى كتف مع الرجال، أخوات الرجال حقاً وحقيقة إن لم تَكُنَّ أقدر منهم وقبلهم في اقتحام الميادين. إنّ رجالنا استلهموا النهضة والحركة منكنّ، إنّ رجال إيران تعلموا النضال واستلهموه من مخدرات إيران المناضلات، لقد تعلموا منكنّ أيتّها النساء العزيزات طلائعية العمل الفدائي!

- لقد أحييتُنّ الإسلام وإيران الوطن والمجتمع، وكنتنّ ولّادات الثورة التي نفتخر بها اليوم جميعاً رجالاً ونساءً بسبب ريادتكنّ للتحرّك، وإقدامكنّ الشجاع باستمرار!

- إن نهضتنا ونجاح حركتنا مديونة للنساء. فالرجال، اتبعوا النساء في هذه الحركة، ولولا تشجيعكنّ المستمر والمستدام للرجال لما أنجزنا ما أنجزناه، لقد حطمتّن قوة الشيطان ودحرتُنّه!

- إنّ نظرة الإسلام إلى المرأة هي نظرة القرآن الكريم إلى السيدة العذراء مريم المقدّسة، تلك المرأة التي تُحاكيها الملائكة وتُخبرها بالمستقبل من واعد الأيام، وهي المرأة الصابرة التي تتحدّى كلّ الصعاب؛ وتتغلّب على كلّ التحدّيات، وتردّ التهم الباطلة عنها بقوة الملائكة وعزمهم!

- إنّ نظرة الإسلام إلى المرأة هي نظرة القرآن إلى السيّدة المؤمنة الأولى خديجة الكبرى (ع) والتي هي أوّل من صدّق النبي محمد (ص) وصَدَقه القول، ووقف إلى جانبه حين عزّت وقفة الرجال!

- **إنّ نظرة الإسلام إلى المرأة هي نظرة القرآن الكريم إلى سيدة نساء العالمين فاطمة (ع)، تلك السيدة الصابرة والمؤمنة والمجاهدة والمدافعة عن حقوق الدولة العادلة وحقوق المجتمع بكلّ طبقاته، والواقفة إلى جنب أبيها وزوجها، والمشاركة معهما في صيانة حقوق الله والناس، حتى سُمّيت بحق بأم أبيها، وهي المنافحة عن النبوّة والإمامة حتى الرمق الأخير!**

- **إن نظرة الإسلام إلى المرأة هي نظرة القرآن إلى زينب الكبرى بنت علي وفاطمة وأخت الحسن والحسين التي وقفت أمام الطاغية يزيد؛ لتفضحه وتفضح حكمه الفاسد، وتجلّ شأن أخيها المقتول ظلماً وعدواناً، وتُضمِّد جراح ابن أخيها السجّاد، وهي المرأة القوية والشديدة على العدو الذي عندما يريد الطاغية أن يستضعفها فيقول لها: «ما رأيك في فعل الله بأخيك الحسين؟» تقول له بكل صمود ووقفة عز وثبات: «ما رأيت إلّا جميلاً»؛ لكنّها سرعان ما تفضحه وتهزّ أركان حكومته عندما تقول له مضيفة: ليست أيامك إلّا عدد وجيشك إلّا بدد و.....**

لاحظوا كيف أنَّ الإمام الخمينيّ، وقبل كلّ شيء إنّما أراد أن ينقل المرأة في النظرية والرؤية الشاملة من مجرّد شيء، كما هي في ذهن الرجعيّين من أصحاب الفقه الرجعي البائس، وكما في ذهن المتلاعبين بها من أرباب الحداثة المنحلة والفاسدة والمفسدة، إلى المرأة الإنسانة والمكرّمة من قبل الباري عزّ وجلّ كل صاحب دين وإيمان ومعتقد إنساني شريف.

ولاحظوا أيضاً كيف يصرّ على القول إنّ الإسلام والدين عموماً إنّما ينظر إلى المرأة مثل نظرته إلى الرجل؛ أي أنّ لها موقعها المساوي لموقع الرجل من حيث تشخيص الدور الإنساني، أي حق

التدخل في كلّ شيء كما يقول، وهنا يبدو الفرق الكبير بين من يساوي المرأة بالرجل إنسانياً، وبين أولئك الذين يلعبون على عواطف المرأة المقهورة، ويطالبون لها بالمساواة الكاذبة والموهومة، لا لشيء إلّا من أجل التلاعب بشخصيّتها وكرامتها في دوائرسوق النخاسة الإنسانية كسلعة جديدة تضاف إلى الرجل السلعة أيضاً، والذي سبق أن ضمنوا بيعه وشراءه في سوق العبيد!

وفي السياق ذاته يقوم الإمام الخميني بإعادة استذكار هذا التاريخ العظيم والمجيد للمرأة من وجهة النظر الإسلاميّة النظرية من جهة، ويلبسها أردية الريادة التي تستأهلها، ويحمّلها أنواط الشجاعة التي اكتسبتها بوقفتها الأسطورية على امتداد عقود من الزمن وهي تتابع معه تطوّر ثورته على الطغيان والباطل من جهة أخرى، وهو بذلك يريد أن يحكي لنا في الواقع قصّة تحوّل المرأة الإيرانيّة ومسيرتها النضاليّة منذ محاولات رضا خان المشبوهة إلحاقها بركب الفساد والانحلال الخلقي عبر مشروع ما سُمّي وقتها بنزع أو خلع الحجاب، مروراً بمقاومات أرباب الفقه البائس للمرأة، من الرجعيّين والمتحجّرين والمتكلّسين من أشباه رجال الدين وأشباه المتنسّكين كما كان يُسمّيهم الإمام، الذين لم يريدوا أن يروا دوراً للمرأة سوى دور المتاع أو اللعبة أو الشيء الذي يسدّ جموح رغباتهم الجنسية فحسب!

فسماحته كان يعرف تماماً أنّ مشروع الاستعمار الغربيّ الذي أُنيطت مهمّة تنفيذه في إيران بالشاه رضا بهلوي في بدايات القرن المنصرم، لم يكن يريد للمرأة الإيرانيّة في الواقع سوى أن تتحوّل إلى سلعة تتقاذفها مساومات التبعيّة الثقافية للغرب، وأهواء المنبهرين بالحداثة القادمة من وراء البحار.

وفي الوقت عينه كان مشروع المحنّطين من أشباه رجال الدين

وأرباب فقه الحيض والنفاس لا يريدون أن يروا المرأة أختاً للرجل في نضالاته اليومية على طريق النهضة الفكرية والحضارية التي كانت تنتظر تعبئة كلّ فرد من أفراد المجتمع الإيراني، بل والمسلم في كلّ العالم الإسلاميّ ضدّ حكومات الظلم والاستبداد، وكذلك ضدّ فقهائهم من أرباب الدعة والراحة وطلب العافية المجانيّة من الطفيليّين الذي اعتادوا الارتزاق على سفرة سلاطين الجور والاستبداد.

من هنا، كان لا بد برأي الإمام من تسجيل وتدوين رؤية الثوار من أتباع الرسل والأنبياء، لا سيما الخاتم محمد (ص)، وفي مقدمتهم رؤيته هو كزعيم إصلاحيّ يحمل مهمّة العودة بإيران إلى هويتها الأصيلة مع ما كان يعني ذلك من ضرورة أن تقف المرأة الإيرانية كتفاً إلى كتف مع أخيها الرجل، إن لم تكن متقدّمة عليه، كما أثبتت هي على أرض الواقع، كلّ ذلك من أجل وضع حدّ للّعب بأقدار النساء والرجال من أمة إيران الحرّة المسلمة والمرشحة لأن تلعب دورالحامية للمستضعفين في العالم.

وبالفعل فإنّ الوقائع المسجّلة بعرق المعاناة، والمدوّنة بالدم الأحمر القاني الذي نزف من جانب طلائعيات لحركة النسائية الإيرانية، وما لاقته خلال تلك المسيرة من دعم وإسناد بعد انتصار الثورة، سواء بالقوانين التي أُقرّت عبر المؤسّسات الشرعيَة، أم من خلال المكتسبات النضالية التي ترسّخت على أرض الواقع عبر جهود المجتمعين الأهلي والمدني المضنية، كلّ تلك الوقائع جعلت من المرأة الإيرانيّة رائدة حقيقيّة في مجتمعات الشرق المسلم، ابتداء من النشاط الجماهيري العام، مروراً بمعترك البرلمان والوزارة والشؤون الإدارية المختلفة، وصولاً إلى معتركات جديدة مثل القضاء والشرطة والتنافس مع الرجال على خدمة قضايا الوطن والأمة في قيادة

الأحزاب والمنظّمات والمؤسّسات العليا في مطبخ صناعة القرار.

فاليوم، ونحن ننقل مثل هذه التجربة الإصلاحيّة الإيرانية في ما يخصّ المرأة نستطيع أن نسجّل وبكل فخر مثلاً مشاركة السيدة دباغ، وهي من المناضلات الأوائل والعالمات الفاضلات كسفيرة في إطار وفد حمل رسالة الإمام الخميني إلى قائد إحدى القوتين العُظميين السيد غورباتشوف رئيس الاتحاد السوفياتي السابق، لتبلغه رسالة الإسلام العظيمة وتوقّعات قائد من قادته والتي صدقت بحقّ تحوّل الشيوعية إلى متحف التاريخ السياسي.

كما نستطيع أن نشير بالبنان إلى تلك المرأة العظيمة التي تسلّقت جبال الهمالايا لتصل إلى قمة إيفرست مع زملائها من الرياضيين الإيرانيين، بالإضافة إلى مشاركة العديد من الإيرانيّات في الألعاب الرياضيّة العالمية التي أُديرت من قبل مؤسّسات رياضية نسائية على مستوى العالم الإسلاميّ، وهو المشروع الابتكاري الذي ابتدعته إحدى السيدات الإيرانيات الفاضلات وهي السيدة فائزة رفسنجاني التي تمكّنت على الرغم من الصعوبات والشبهات التي أحاطت بالمشروع والتي حاولت الإطاحة به؛ لكنها استطاعت أن تجعل إحدى الرياضيّات الإيرانيّات تنزل إلى شوارع العاصمة طهران لتحمل مشعل الأولمبياد الرياضيّ وهي تجري بالملابس الرياضية من دون أن تنتقص ولو شعرة من كرامة المرأة المسلمة المحجبة.

كما نستطيع اليوم أن ننقل وبكلّ جرأة حضور المرأة الإيرانية في الأولمبيادات العلمية الدولية، وحصولهن على العديد من الجوائز العالمية، مضافاً إلى نشاطهن الواسع والمعمّق في عالم الصحة والطب ومعالجة الأمراض الصعبة، أو إيجاد المأوى والملاذ للمصابين بهذه الأمراض بفضل جهود مئات النساء المجهولات.

كذلك يمكن الإشارة إلى مشاركة النساء إخوانهن الرجال في

نهضة محو الأمية والقضاء على الفقر في إطار مؤسّسات تطوّعية وحكوميّة، إلى جانب حضورهن الفاعل والأساسي في الإذاعة والتلفزيون وفي وسائل الإعلام المكتوبة والمرئية والمسموعة، وكذلك في الأوبرا والأناشيد الجماعية، وحتى في الغناء الجماعي في الوقت الذي كان فيه صوت المرأة بحد ذاته بالنسبة إلى الكثيرين ومن بينهم رجال دين ومرجعيّات فكرية دينية رفيعة، عورة يجب سترها إلى جانب وجهها وشكلها العام، كما كان شائعاً ومُتداولاً إلى ما قبل ظهور رجل الإصلاح والتغيير الكبير الذي نحن بصدد الحديث عن تجربته والنقلة النوعية التي أطلقها مع دخوله إلى ساحة المتغيّرات المتعدّدة الأوجه بقوة وصلابة.

وبديهيّ القول إنّ هذه الأمور والإنجازات لم يكن بالإمكان تكلُّلها بكل هذا النجاح لولا جرأة وشجاعة أبيهنّ ورائدهن وعميد حركتهن الطليعية، والمشجّع والمساند والحامي الأساس لهن، والمنافح عن دورهنّ في وجه عاديات الدهر وحملات الإيقاع بهن في دائرة الشبهات، من قبل أولئك الآنف ذكرهم من أشباه المتنسّكين وأرباب الترويج لفقه المقابر والحوزة الصامتة.

ونخلص إلى التأكيد على أنّ هذه الإنجازات بقدر ما هي ترجمة أمينة وصادقة ومخلصة لتعاليم القرآن الحقّة من قبل جمهور للنساء الإيرانيّات العزيزات، هي مدينة أيضاً لفضيلة الاجتهاد ومواكبة عنصر الزمان والمكان اللتين تحلّى بهما الإمام روح الله الموسوي الخميني رائد الإصلاح والتغيير في الفكر الديني المعاصر.

11

تسونامي العشق والحسن والجمال

يكفي أن نعرف فقط أنّ كلّ «الرسائل العملية»، وهي المدوّنات الشرعية التي كانت تصدر عن كبار المرجعيّات الدينيّة الشيعيّة على الأقل، بمن فيهم الخمينيّ، كانت تعتبر أنّ وسائل ما كان يُسمّى باللهو واللعب مثل الناي والطبلة والمزمار والآلات الموسيقية المختلفة، ومنها طاولة لعبة الشطرنج، حرام شراؤها أو بيعها أو التعاطي بها فضلاً عن «الاستمتاع» بها، يكفي ذلك حتّى نعرف حجم الصدمة، بل الثورة التي أحدثها الرجل عند إعلانه فتواه المثيرة للجدل بتحليل الموسيقى ولعبة الشطرنج!

لكنّ الخميني «العارف» والخمينيّ الفيلسوف والشاعر الرقيق المشاعر، والذي لم يكن معروفاً لدى الكثيرين قبل أن يُطلق صيحته التغييريّة علناً بوجه موانع الجمود والنمطيّة والتقوقع التي كانت تكبّل الكثيرين، هو الذي فجرّ ما يمكن أن نطلق عليه مجازاً وصف «تسونامي العشق والحسن والجمال»، ليتحرّك بموازاة الخميني الثائر والصارم والعابد والزاهد، ويسيرا معا وبخُطى ثابتة ومتوازية نحو

الهدف الواحد من دون أيّ تضارب أو تضادّ أو مجابهة كما كان يظنّ البعض أو يتصوّر!

لقد دفعته التجارب الغنية، وحبّه لديناميكية الحياة، وعشقه للجمال الإلهي السامي والحسن المتعالي للخلق، إلى تفجير كلّ ذلك الزخم الروحاني الرفيع في بوتقة مشروع الفتوى الشهيرة قاطعاً بذلك الشكّ باليقين، بأنه رجل الحياة الأول مع كونه مشروع الشهادة الأوّل، وقد أكّد الخميني بذلك حقيقة كونه الشاهد والشهيد على حركة الشعب الإيراني الدفّاقة نحو التحرّر والتقدم والاستقلال، وهي بالمناسبة ثلاثية مطالبات الشعب الإيراني على امتداد القرون قبل أن تتطابق تلك المطالبات مع شعارات الزعيم الإصلاحيّ الجديد، لتفرز هذه المرة خلاصاً أبدياً للحركة الشعبيّة ولأول مرة في التاريخ الإيراني من مرضها المزمن المعروف بالقطع المستمر بين القاعدة والقيادة، وهو الأمر الذي تبلور في ثورة ناجحة بكلّ معنى الكلمة!

ماذا يعني هذا بالعربي الفصيح كما يقول النخبويّون، أو بالعربي العاميّ كما تفضّل الناس أن تعبّر؟!

هذا يعني أنّ الإمام الخميني، وهو يُمارس الثورة والجهاد والرفض، اكتشف بعدما تشكلت نواة الدولة الإسلاميّة الحديثة، أنّ الحياة لا يمكن لها أن تسير برِجل واحدة كالبطة العرجاء، وبالتالي فإنّ من يفكّر بالحكم والضبط والربط لأمور الناس المتعدّدة في عالم الماديات المحضة والمجرّدة من الأشياء بكلّ حزم رجل الثورة والحرب والسلام، لا بدّ له من أن يواكب حاجات الناس الروحيّة الطبيعية والمتنامية؛ لكنها المتنوّعة والمتعدّدة الأشكال أيضاً، بالحزم والصرامة نفسها التي تحرّك فيها في بناء الدولة القوية.

بمعنى آخر لا بدّ من تغذية الروح بما تهوى وما تعشق أيضاً،

وبلغة القلب التي لا يفقهها العقل كما يقول الفيلسوف والعارف الكبير محي الدين بن عربي:

مقالاتنا شتى وحسنك واحد   وكلٌّ إلى ذاك الجمال يشير

هنا يتحوّل الخميني السياسي ورجل الحكم الصارم إلى رجل رقيق المشاعر شفّاف الطبع، وربما يتذكّر ما هو شائع منقولاً عن المرجع الديني اللبناني الشهير العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين وهو يجيب عن استفتاء حول الموسيقى والألحان:

إن كنت تنكر أن للألحان فائدةً ونفعاً، فانظر إلى الإبل التي لا شك أغلظ منك طبعا

تصغي إلى شدو الحداة   فتقطع الفلوات قطعاً

إنها لغة أئمة الحياة الذين سبق لهم أن قالوا وهم يتحدّثون بالسياسة ويجادلون الطواغيت بأنّ احتلال الأرض قد يكون سهلاً عليكم وإن كنتم عاجزين عنه أيضاً؛ لكن احتلال القلوب أمر غير ممكن من قبلكم وهو ما تجهلونه بالتأكيد!

إنّ تاريخ الإسلام لا يخلو من كبار العلماء والفلاسفة من أمثال الفارابي وغيره ممن أسهبوا في الكتابة والتأليف في عالم الموسيقى والفن الموسيقي: لكن العبرة هي في أن يترجم رجل الحكومة والميدان، ورجل الحوزة الدينية وعلوم القرآن، مشروعه في الإدارة والحكم، وتراث أولئك الفلاسفة والعرفاء الذين تتلمذ على أيديهم، إلى مشروع عملي يصمد بوجه العواصف، حتى ولو اضطرّ إلى أن يسبح عكس التيار، ويعاقبه بعض زملائه وأقرانه بتحريم مقلّديهم من الاستماع إلى راديو وتلفزيون جمهوريّته الحديثة الولادة القائمة على قواعد الإسلام ومدرسة القرآن والفقه التقليدي المتّقن والمتين، كما يُقّرون هم ويعترفون على الرغم من خلافهم واختلافهم معه حول فتوى الفنون!

في ضوء ذلك، ألا تُعتبر خطوة جريئة وشجاعة كهذه بمثابة تسونامي العشق والحسن والجمال؟!

الأمر نفسه يتكرّر مع برامج الإذاعة والتلفزيون الأخرى مثل إعداد وإنتاج المسلسلات، وكذلك ملف ما يُسمّى بالفن السابع أو المسرح أو ما شابه، فلم يكن الإمام يوماً ضدّ أيّ من هذه الفنون، بل على العكس من ذلك تماماً، فها هو حتى قبل أن ينزل إلى الميدان ويُمسك بتلابيب الحكم، يقول عما يُسمّيه بمؤامرة تشويه موقفه وموقف الإسلام من السينما:

- **لقد قاموا بالتحريض ضدنا وإشاعة الأكاذيب حولنا، بأننا ضد السينما، وهذا محض ادّعاء كاذب وقول هراء، فنحن لسنا ضد السينما أبداً، إنّ اعتراضنا لم يكن يوماً ضد أصل السينما، وإنما على ذلك النوع من السينما التي جلبوها معهم من الخارج لإفساد شبابنا، وما يروّجونه من خلالها لما يسمّونه بالنجوم السينمائية التي تسعى من خلالها دوائر الاستعمار إلى إغواء شبابنا وإفسادهم، بعبارة أخرى؛ فلو قام مسجد ما بهذا الدور لأوصدنا أبوابه كما فعل رسول الله عندما مسجد ضرار الذي شُيّد ضد الرسالة المحمدية.**

- **أما إذا أصبحت السينما سينما ملتزمة وسينما أخلاقية، فهذا طريق جديد في التربية كما هو حال المدرسة والمسجد وغيرهما من المؤسسات التي تُفيد في توعية الشباب والفتيات حتى نتمكّن وإياهم من قطع يد الناهبين لثرواتنا من النفط والغاز، ونوقف نهبهم إلى الأبد، فنحن ندعم سينما كهذه، ولتكتب الصحف والإعلام الأجنبي الموجّه ضدنا، بعد ذلك ما يكتبه!**

وبالفعل فإنّ أيّ متتبّع لمسيرة تحوّل الفن السابع في إيران، وأي متابع لتطوّر مسار الثورة السينمائية التي حصلت على مستوى المخرجين والممثلين والتصوير والرسائل المهمّة والأهداف السامية التي حملتها السينما الإيرانية بعد الثورة، بل والنقد السينمائي المتنامي في ظلّ الدولة الإسلاميّة الإيرانية الحديثة، أي متتبّع لذلك كلّه لا يملك إلّا أنّ يسجّل لها كلّ الاحترام والتقدير، بل وأن يضعها في مصاف التقدّم والإبداع والابتكار السينمائي الاستثنائي، وكما يقول أهلنا في بلاد الشام لا يملك إلّا أنّ يرفع لها «الطقية»، ويؤدّي لها التحيّة تقديراً لجهدها المتميّز، وهو ما ظهر في الجوائز العالمية التي فازت بها الأفلام الإيرانيّة في المهرجانات الدولية المتعدّدة، والتي جعلت العديد من أصحاب هذه المهنة وأهل هذا الاختصاص من الشرفاء والأحرار ينصفونها ويمنحونها درجة امتياز عالية على الرغم من اختلافهم الفكري أو السياسي مع الدولة أو المجتمع التي نشأت فيه!

ومما لا شكّ فيه أنّ كل ذلك لم يكن ليحصل في الواقع، لولا تلك النظرة المنفتحة أولاً والتغييريّة والإصلاحيّة ثانياً، في الإطار الفكري العام الذي كان يُروّج له في البلاد تحت نظر وبصر وسمع قادة الثورة الجُدُد وزعمائها ممن يُسجّل لهم التاريخ انفتاحهم على الآخر باقتدار؛ ولكن بقدر أيضاً، والتصدّي للنظريات الرجعيّة المعروفة في هذا المجال، ولكن بيقظة وانتباه حاد منع حتّى الآن مسار التحول الفني من السقوط في براثن سينما الابتذال والانحلال وأوحال الفن العبثيّ المعروف بمدرسة الفن من أجل الفن!

12

فقه البساطة والتواضع مقابل فقه الفخفخة والكبكبة

الزائر لمكان إقامة المصلح والمجدّد الكبير الإمام روح الله الموسوي الخميني، سواء عندما كان ساكناً في بيته الصغير في قم المقدّسة، أم بعد نفيه إلى العراق في مدينة النجف الأشرف،أو في إقامته المؤقّتة في ضاحية «نوفل شاتو» الباريسية، أو بعدما عاد إلى إيران فاتحاً ومظفّراً وأقام في قم أولاً ومن ثم في طهران، هذا الزائر لا يجد فرقاً ملموساً لا في طبيعة المكان، ولا في حجمه، ولا في مسلك أو تصرّفات ساكنه، فقد بقيت هي هي لم تؤثّر فيها تحوّلات الوقائع والأحداث، أو تُغيّر شيئاً في طبيعة الرجل الذي يشهد له كلّ من تعرّف إليه بأنه ظلّ ذلك الزاهد والمُكتفي من الدنيا بابتلاءاتها وامتحاناتها، والمُعتبر منها بحكايات ممن سبقوه إليها، والمُعتبِر لها بأنها ما هي إلّا دار ممرّ إلى الآخرة، وليست دار مقرّ واعتداد وفرص!

لكن ما كان يميز هذا الرجل الزاهد بالدنيا ليس فقط محلّ إقامته

المتواضع وإنما مجموع سلوكه وتصرّفاته ونمط تعامله مع حوارييه وأقرانه أو زملائه أو تلامذته وطلّابه ومرافقيه.

فمنذ اليوم الأول الذي برز فيه على المسرح الاجتماعي وتالياً الديني والسياسي، وهو يتجنّب بكلّ ما أُوتي من قوة وحزم، كلّ ما يوحي بأنّه كان يبحث عن زعامة اجتماعية هنا، أو مرجعية دينية هناك، أو كسب موقع دنيوي رفيع هنا أو هناك.

فحسب ما يذكر بعض تلامذته الأولين مثلاً لم يسمح يوماً لطلابه بأن يتجمهروا من حوله عند الخروج من الدرس وهو في طريقه إلى البيت، حتى لا يُظنَّ أنه يريد أو يحاول إشاعة أجواء زعامة ما من حوله، كما كان ينهى بعض محبيه عن السير خلفه من البيت إلى المقامات في قم أو النجف، أو في أي مكان آخر للزيارة أو غيرها؛ للسبب الأول واحتراماً لطلابه ومحبيه الذين لم يكن يريد لهم تهميشاً لشخصيتهم أو مقامهم من خلال هذا الموقف، كما يؤكّد عددٌ كبيرٌ من طلّابه.

وعندما أصرَّ أحد الطلّاب على ذلك مرة أوقفه الإمام وقال له بالحرف الواحد:

«أنت طالبٌ محترمٌ ولك قيمتك الاجتماعية الخاصة بك، وأنت تقول إنك إنما تسير خلفي حباً لي وأنا أقول لك بكلّ محبة بأن ذلك قد يقلّل من شأنك ومقامك. وهذا ما لا أريده لك، لا تكرّرها مرة أخرى، وشكر الله سعيك».

والرجل كما ينقل حواريوه كان حريصاً على اجتناب الشوارع الرئيسية واختيار الأزقة الخالية من الحركة والمرور حتى لا يقع في الحرج المذكور.

حتّى عندما كان في النجف الأشرف، واطلع بعض المقرّبين منه

على احتمال وجود خطّة لاغتياله من قبل عناصر السافاك ـ البوليس السري للشاه ـ فإنه لم يقبل بأن تتحّول أساليب المراقبة التي اعتمدها بعض حوارييه من دون علمه إلى موكب يرافق حركته من البيت إلى الحرم الحيدري الشريف وبالعكس، ما اضطرّه إلى نهيهم عنها عندما اكتشف ملاصقتهم له في الحركة، كما ينقل السيد علي أكبر محتشمي.

ومن يعرف أجواء وفضاءات العديد من رجال الدين، لا سيما من مرشحي المرجعية التقليدية، أو هم من المراجع التاريخيين، يستطيع أن يلمس الفرق بين الإمام الخميني وبين سائر أقرانه. بل أكثر من ذلك، فإنه عندما أُخبر بأنّ ثمّة أجواء تحاول النيل منه ومن مرجعيّته ومقامه من خلال الإشارة أو التلميح إلى تلك القواعد البروتوكوليّة المعروفة، فإنّه أجلسهم مرّة وشرح لهم قصة الوقوف صفوفاً صفوفاً يوم الحساب الأكبر ويوم القيامة في حضرة الباري (عزّ وجلّ)، وسألهم ماذا سيكون موقفهم ولسان حالهم وهم يقفون على أعتاب رسول الله، الأمر الذي أخجلهم وجعلهم لا يكرّرون ذلك الحديث معه بعدها!

وثمة قصة طريفة ومعبّرة أيضاً ينقلها أحدهم عن أيام حياته في النجف الأشرف؛ حيث يقول إنّ واحداً من ميسوري الحال الإيرانيين المقيمين في ألمانيا، وهو من المحبّين للإمام قرر شراء سيارة له وجاء يعرضها عليه هناك ليستفيد منها لزيارة الحرم الحيدري الشريف، أو عند السفر إلى كربلاء مثلاً، فلم يقبل الإمام تلك الهدية قائلاً: إنّه ليس بحاجة إلى سيارة، وعندما أصرّ صاحب الهدية قائلاً: ولكنني جئت بها لهذا الغرض فقط، أجابه الإمام: إذا كانت هي لي فأنا أقبل أن آخذها بشرط أن أبيعها وأصرف ثمنها على الطلاب المحتاجين، وهكذا نجح الإمام في الخروج من المحظور الذي كان يعتقده؛ ذلك لأن الظروف العامة التي كانت تحيط بمعيشة

الطلبة آنذاك، مضافاً إلى الوضع العام لسكان المحلّة والمدينة، لم تكن لتُلائم التنقل بالسيارة، مع العلم بأنّ السيارة كانت قد وصلت إلى بعض المراجع يومها وهو ما أثار عدم ارتياح واضح عند فقراء الناس والطلبة الذين كانوا يعانون من شظف العيش بالإجمال.

يقول أحد مرافقيه الدائمين أثناء سكنه في بيته المتواضع جداً في العاصمة طهران إنّه لم يكن يحب أيّ شكل من أشكال البروتوكول الذي عادة ما ترافق حياة الزعماء وكبار المسؤولين، وها هو قد أصبح محطّ آمال الشعب الإيراني والعديد من الشعوب الأخرى، وصار يستقبل كبار زعماء العالم ورؤسائه، ما اضطّرناً يوما وبعد نقاش مطوّل لم يقتنع فيه، إلى أن نستغل عدم وجود لقاءات له مع أحد مدَّة أيام فقمنا بنصب كاميرات تصوير تلفزيونية لتسجيل كافة لقاءاته في الغرفة الصغيرة التي عادة ما يستقبل فيها الزوار؛ لكنّه ما إن دخل إليها في أول لقاء ووقعت عيناه على الأجهزة حتى أمر على الفور بإزالتها فوراً، فعملنا بما أمرنا به وبعدما انتهينا من إزالتها أردنا أن نصبغ سقف وجدران الغرفة من آثار الثقوب والسواد الذي بقي لاصقاً عليها؛ لكنه رفض أيضاً ذلك بشدة، ومن يزور الآن مكان لقاءاته المعروف وهو صار مزاراً الآن يستطيع أن يلاحظ تلك الآثار بسهولة، كما ورد على لسان أحد حوارييه الشيخ أنصاري.

وفي الواقع، هذا جزء يسير من قصص عديدة أخرى هي بالعشرات يتناقلها المرافقون والحواريّون والمحبّون والتابعون، تفيد جميعاً أنّ الإمام كان حريصاً على أن يقوم بأعماله شخصياً، فهو الذي يحضّر الشاي لنفسه، وهو من يقوم بترتيب رفوف مكتبته الصغيرة وينظّفها، وهو الذي لا يقبل ولم يقبل يوماً أن تستبدل لمبة محروقة بأخرى سالمة ما لم يكن ذلك للضرورة القصوى، وبالتأكيد على أن لا يكون ذلك من بيت مال المسلمين!

وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا أكسبه احترام الأبعدين وود المقربين وعشق الوالهين، وجعله يحتلّ قلوب الملايين، من دون أن يصرف عليهم بطريقة المليارديريين، من عشاق الفخفخة والكبكبة وتجار الإعلان والدعاية والإعلام على زعامتهم وفخامتهم من بيت مال المسلمين أو بيت مال الشعب من كلّ ملّة أو دين!

الذين عاصروه واقتربوا منه، عن انزعاجه من تخلّي المقرّبين وهم يحاولون دفع الناس أثناء اللقاءات العامة بعيداً عنه إما حفاظاً على أمنه الشخصي، أو حفاظاً على النظام والبروتوكول، فكان يقول لهم دوماً ناهراً إياهم: لا تضايقوا الناس فهؤلاء هم أولياء نعمتنا!

كان هذا الرجل العارف الزاهد يُفضّل ألف مرة أن تخرج الناس راضية مرضيّة من محل تجمّعهم من حوله على أن ترضى عليه الخاصة من الحواريين والمقرّبين والتابعين، وتشهد عشرات القصص غير المدوّنة؛ ولكنها المنقولة على الشفاه بأنه لطالما نهر أو نبّه أقرب المقرّبين إليه على سلوك لا يليق هنا أو هناك، تجاه عامة الناس، أو تجاه الضيوف والزوار، ليس فقط للسبب المذكور أعلاه بل وإيماناً منه بأنّ كلّ قادم جديد قد يكون يحمل ما لا يصل إليه من المقربين، حتى أنه كان يلوم البعض ممن كان ينقل التقارير إليه بانتظام بالقول: وأين الأخبار والتقارير السلبية إذن، فهل يُعقل أنّ كلّ الناس وكلّ الأمور والأشياء دائماً معنا؟!

في الواقع كان أكثر ما يُؤذيه هم أولئك المتملّقون والمتزلّفون والمدّاحون القشريّون الذين لا يهمهم من الأمر إلّا إظهار التقرّب أو الممالأة في شرح الأمور، حتّى اضطُرّ إلى نهر بعضهم علناً وفي المحافل الخطابية العامة.

إنّه رجل من جنس مختلف، وزعيم من رهط مختلف، وقائد من نمط جديد بكلّ معنى الكلمة.

13

فقه الزمان والمكان

بديهيٌّ القول إنّ الإمام الخمينيّ كان يعرف متى يتكلّم وينطق: ومتى يسكت أو يحتاط في الكلام، كما يعرف أين يجب الكلام وأين لا ينبغي النطق ببنت شفة!

كما كان يعرف متى يجب عليه النطق بالفتيا، ومتى لا ينبغي الاقتراب منها أو التوجّس منها. إنّها ملكة الاجتهاد التي كبرت معه وترعرعت في حوزة قم والنجف كما في إدارة الحكم في طهران.

لقد صبر على الشاه كثيراً وفضّل بداية إيصال النصائح إليه بطرق مختلفة؛ لكنّه في اليوم الذي اقترب فيه هذا الأخير من حدود بيع الناس والأوطان، وتسليط الأجنبيّ الكافر على الأمة، اضطر الإمام إلى إلقاء خطبته النارية الشهيرة رادّاً فيها على قانون منح الحصانة الدبلوماسية الشهير للمستشارين العسكريين الأميركيين، وكيف قرّر أن يُسمّيه بقانون الاستسلام!

وهو بدأ كلامه في ذلك العام ـ 1384 هجري ـ بالقول:

﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾

أيعلم الشعب الإيراني ماذا قرّر مجلس النواب في هذه الأيام؟!

تُرى هل يعلم حجم الخيانة التي وقعت سراً وفي ظلّ تعتيم إعلامي كامل؟! أيدري أنّ المجلس هذا قد صدّق على اقتراح الحكومة بيع كرامة الشعب في سوق النخاسة الأمريكي؟!....».

إلى ذلك كان الإمام يعرف متى يسكت على الرجعيين والمتحجّرين، ومتى يفضحهم عندما يتطلّب الأمر ذلك. وكان يعرف متى يَحْسُنُ تحمّل الأذى ومتى يُصدر أوامره في قطع العلاقات مع أولئك الذين أرادوا قصم ظهر المقاومة، وسحب العالم الإسلاميّ من خريطة التضامن الإسلاميّ والإلقاء به في متاهات التطبيع مع العدو!

وهكذا تُراه يردّ على طلب نجدة ياسر عرفات له من بغداد وهو يصرخ هل من ناصر ينصرني من الأنظمة التي تحاصرني في كامب ديفيد، فيقول له عبر مندوبه الذي ذهب إليه في قم المقدسة حاملاً إليه طلب النجدة:

«تُقطع العلاقة مع من قطعوا بالشعب الفلسطيني وتركوه وحيداً قبل أن يرتدّ إليك طرفك» كما يؤكّد شاهد على العصر وثيق الصلة بالمقاومة الفلسطينية.

من جانب آخر، كان الإمام يعرف متى يسكت على انحرافات بعض قيادات الثورة الأوائل مادام الأمر ليس خطيراً، ومتى يفضحهم عندما يتوقّع خطر تغلغل هذا الانحراف إلى داخل جسم الأمّة والشعب، فيخرجهم من الحكومة والحكم بعد تجربة احتلال وكر التجّسس الأميركي المرة معهم وكيف أنّ همهم الوحيد كان منصّباً على كيفية إنقاذ ما يمكن إنقاذه من سمعة أو امتيازات ديبلوماسية لهم عند الأميركان!

وكان يعرف متى يسكت ويتحمّل الصمت إزاء تفاقم خطر تغلغل الفكر الليبراليّ الاستسلامي بين صفوف الثوار الفلسطينيين، ومتى يقرّر الجهر بفضح مقولاتهم وأين؟! ليقول كلمته الشهيرة في حديثه الخاص أثناء لقاء له مع قيادة حركة الجهاد الإسلاميّ بقيادة الدكتور فتحي الشقاقي:

«إنّ علينا وعليكم مقاتلة العدو الصهيوني حتى خروج آخر صهيوني من فلسطين المحتلة»!

يعرف متى يسكت على ممارسات المتلبّسين بعباءة «المرجعية» وكان المتذبذبين والمترنّحين والفاقدين لمشروعية النضال، ومتى كان يجب أن يُخرجهم من الميدان في لحظة انكشاف سرّ تآمرهم على الثورة والثوار وخط المرجعية القويم!

وكان يعرف متى يسكت على المنشغلين بالصراعات الداخلية من أجل كرسي هنا أو منصب هناك، ويعرف متى ينهرهم عندما تتعرّض الوحدة الوطنية للخطر في عزّ الحرب المفروضة وفي لحظة تكالب الأعداء فيقول لهم كلمته الشهيرة بعدما صمّموا على استجواب رئيس وزراء حكومة إدارة معركة الاستقلال، ليقول لهم كلمته الشهيرة: إلى أين أنتم ذاهبون، فيتساقطون أمام صخرة وحدة الشعب كأوراق الخريف، ويسقط اقتراع حجب الثقة عن أولئك النواب الغافلين رغم تديّنهم والتزامهم العام بتعاليم الإمام، ليبقى مهندس إدارة الدفاع المقدّس ومعه الوحدة الوطنية أمام عواصف المعتدي وحماته الوليين بخير!

وكان يعرف متى يتحمّل سكوت الساكتين عن نصرة لبنان، ومتى يُرسل جيوش المتطوعين إليه ليقيموا معسكرات التدريب الجماعية، دفاعاً عن حقّ اللبنانيين الذين طالبوه بذلك مُقسمين عليه بحق القرآن والرسول والبتول، بأن لا يتركهم وحدهم في معرض هجوم الوحوش

الإسرائيليّة الكاسرة التي وصلت إلى مشارف الحدود اللبنانية، فيما تراخى الجمع من أهل الداخل اللبناني، وانكفأ البعض عند أعتاب المتخاذلين والساكتين عن الحق!

وكان يعرف متى يتحمّل تبعات معاناة العسكر والمقاتلين في جبهات القتال من قلّة الزاد والعتاد، ومتى ينبغي شرب السمّ الزعاف، من أجل إنقاذ البلاد والعباد!

وكان يعرف متى يسكت على ممارسات أصحاب المنهج المتسامح مع أعداء الله والقِيَم الدينية السامية، فيمنحون سلمان رشدي جائزة الأدب الرفيع؛ لكنه يعرف أيضاً متى يصبح السكوت حراماً، وتصبح الفتوى واجبة الإظهار بوجه ذلك المرتدّ وعصابة الأشرار من تجار السياسة والدبلوماسية العمياء، ممن وضعوا مخطّط كسر شوكة الدين وإهانة النبيّ المختار وزوجته أم المؤمنين عائشة والصحابة المنتجبين وآله الأطهار!

كذلك كان الإمام يعرف متى يرفض أيَّ تنازلٍ بهذا الخصوص تجاه ضغوط ذلك الأوروبيّ المتعجرف الذي سحب جميع سفرائه احتجاجاً على فتوى قتل المرتدّ الشيطاني، ومتى يقبل وساطة الخيّرين من بعض دول الجوار مع الحفاظ على حقوق بلاده السياديّة عندما يقبل بعودتهم مُطأطِئي الرؤوس، وهم ينزلون من الطائرة التي أقلّتهم من عواصمهم الأصلية إلى عاصمة الثورة طهران تماماً كما توقّع هو وقرأ في فنجان الواقعيّة الثوريّة منذ اللحظة الأولى لنشوب الأزمة، بينما كان فطاحل الديبلوماسيّة الليبراليّة من أهل الداخل والخارج ترتعد رُكَبهم، خوفاً من تداعيات تلك الفتوى التاريخية التي عارضوا صدورها، وظلّوا من أجل إلغائها دونما جدوى يُصرّون!

لقد كان يقرأ قصة الرسوم الكاريكاتيريّة الدانماركية وقصة الفيلم الهولندي، وقصة محاولات تشويه الإسلام وصورة المسلمين بعد

حوادث 11 سبتمبر الملغّمة والمفخّخة، وكل ما طفح من غيظ سفّاحي الكلمة والدعاية والإعلان على لسان الأهوجَيْن بوش وبرلسكوني ومن لفّ لفّهما، كلّ ذلك قرأه مبكراً في فنجان الغيب، وقد صدقت الرؤيا عنده فيما خاب فأل القاعدين!

حتّى أنّ الإمام كان بارعاً في تلمّس وحسّ شعور الحاضرين بكل شفافية، فلا يتكلّم كلاماً يصلح لطلاب حوزة قم أو النجف في نوفل، شاتو الباريسية أو بالعكس، ولا يتحدّث بلغة من لم يستلم الحكم وهو لا يزال بباريس كمن أمسك بتلابيب الدولة وصار في عاصمة الثوار والمنتصرين على قلعة الأمبرياليّة الأولى في منطقة ما كان يُعرف بالشرق الأوسط الأميركي!

بيد أنّ ذلك لم يكن ليعني يوماً أنّ الإمام الخميني كان «انتهازيا» بالمعنى السياسي المتداول والمتعارف عليه والذي يحمل بعده السلبي المعروف، بل على العكس تماماً، فقد كان ينتهز الفرص؛ لأنها تمرّ مرّ السحاب. ويعتبر الوقت كما يقول جده الإمام علي (ع) كالسيف إن لم تقطعه قطعك، مع ثبات واضح وشديد حول المبادئ وأُسُس الكفاح والنضال المقدّس!

إنّها مدرسة الجرأة على الكلام، حين يجب الكلام والجرأة على الصمت حين ينبغي الصمت، وشجاعة السباحة عكس التيار حين يتطلّب الأمر ذلك، ومواكبة مشاعر الناس والالتحام مع الجمع الغفير منهم، عندما يكون مصداق الجمع هذا أنّ يد الله مع الجماعة!

إنّها مدرسة الاجتهاد الحيوية المعطاءة التي حملها معه أباً عن جَدّ، وكيفيّة موازنتها وصقلها ومزجها مع مقولات الجهاد والتمرّد والاحتجاج على الباغية والطاغية من جماعات السلطة المحلّية والدولية، والإدلاء بصوته والنطق بالفتيا في الوقت المناسب وعلى الرغم من كلّ الأعاصير باعتبار أنّ الساكت عن الحق شيطان أخرس!

14

فقه الحُرُمات وثقافة الحقوق الفردية

كلّنا يعرف أنّ أقصى ما توصّل إليه الطموح الغربيّ في مشروعه للرؤية الكونية في صيرورتها الماديّة هو بلورة المذهب الرأسمالي المعروف.

وكلّنا يعرف أيضاً، أنّ أقصى ما توصّل إليه هذا الفكر المادي ومذهبه الرأسمالي هو ما يُعرف بالرأسمالية الفردية التي تتغنّى بها القارة الأميركيّة وتتباهى، أمام مثيلاتها أو نظيراتها الأوروبية، بل إنّها ولشدة اعتدادها بهذا الإنجاز، أخذت بعض معاهدها تطلق على وصفات الرأسمالية الغربية أنّها متخلفة وتنتمي إلى ما تنعته بالنصف المظلم من العالم، كما يرد في أدبيات معهد إنتر برايس التابع للمحافظين الجُدُد مثلاً!

الفرد وحقوق الفرد والدفاع عن حريم هذا الفرد وكرامته إذن، هو أقصى ما يتباهى به العالم الغربيّ في عهد ما بعد الحداثة، في الجانب النظريّ على الأقلّ، وإن كان الجانب العملي والتطبيقي يؤشّر باتجاه آخر تماماً!

لكنّه الغرب الطامح والطموح والطامع بأن يعتلي عرش الإنجازات البشريّة وحده دون غيره كما علمنا دائماً، حتّى أنّه أطلق مقولة «نهاية التاريخ» الشهيرة كما هو معروف، وإن كان قد تراجع عنها بأسرع ما يمكن أن يتراجع أحد من المنظّرين عن مقولاته!

ومع ذلك كلّه، فإنّ ما من أحد يشكّ ولو للحظة واحدة في أنّ العالم الآخر المنتمي إلى غير عالم الغرب الماديّ مليئ بالإنجازات البشريّة على امتداد التاريخ الإنسانيّ!

والواقع أنّه إذا ما قدّر للتاريخ أن ينصف تلك الشعوب والأمم غير الغربية، فإنّه لن يبقى شيء يُذكر للغرب غير قدرته على نقل العلوم من الآخر، وتجميعها وإعادة صياغتها بلغة عصريّة عولميّة في لحظة غفلة من الأمم الأخرى كما في لحظة عسفٍ تاريخيّ فريد، مترافقة مع غلبة تم تدوينها وتسجيلها بالدم وعرق الشعوب ابتداء من الهنود الحمر وهم أصحاب القارة الأميركية الأصليين، مروراً بالأمم الأفريقيّة السوداء وهم الذين أسهموا في صيرورة القوة الأمريكيَّة المادية الراهنة وصولاً إلى الشعوب والأمم الشرقية بأديانها التوحيدية، وأخيراً وليس آخراً أمّة الإسلام والعرب بما قدّمته من إنجازات ماديّة ومعنوية في الدين والثقافة والحضارة بما يتجاوز القدرة على الحصر والإيجاز في هذا العرض الموجز والمتواضع!

ولكن، ومن باب الإشارة والتلميح والعرض الموجز لجانبٍ واحدٍ من جوانب هذا الإنجاز التاريخيّ الكبير لتلك الشعوب والأمم المبدعة، وفي إطار بحثنا المتواضع والبسيط لإنجازات الإمام المجدّد ورائد الإصلاح والتغيير الحديث الذي نحن بصدد العرض له هنا، نقدِّم لكم في ما يلي واحدة من هذه الإنجازات التاريخية الفريدة من نوعها والتي وردت في إحدى رسائل الإمام الخمينيّ في

لحظة تاريخيّة حرجة للغاية، كان الجدل فيها على أشدّه في الوسطين النخبويّ والشعبيّ حول مدى التزام النظام الجمهوريّ الإسلاميّ الوليد بحقوق الفرد والجماعة والإنسان، من حيث هو إنسان قبل كلّ شيء آخر!

وهذه الرسالة الشهيرة عُرفت بـ«إعلان المواد الثماني» وهو من الإعلانات التي وضعت حداً في حينه، لذلك الجدل المدوّي حول أهمية حقوق الفرد وحرماته وحرمة انتهاكها تحت كلّ الظروف حتى في ظروف غلبة مشاعر الثورة والثورية:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تعقيباً على التذكير بضرورة أسْلَمة كافة الأجهزة الحكومية، لا سيما الأجهزة القضائية، وضرورة استبدال الأحكام الطاغوتيّة للنظام المتجبّر البائد بأحكام الله في النظام الإسلاميّ، فإنّ الواجب يستدعي منا تنبيه كافة العاملين إلى ما يلي آملين من الجميع الانتباه واليقظة والإسراع في التنفيذ إن شاء الله تعالى:

1 ـ إتمام عمليّة إعداد القوانين الشرعية اللّازمة والمصادقة عليها وإبلاغها إلى المعنيين بكلّ الدقة والسرعة اللّازمين، ووضع القوانين المتعلّقة بالملفّات القضائيّة التي هي محلّ اهتمام وابتلاء عموم الناس في صدر اهتمام القرارات المتّخذة حتى لا تضيع حقوق الناس أو تتعطّل.

2 ـ الإسراع في إتمام ملفّات تعيين واختيار القضاة ووكلاء الدفاع بالسرعة والدقة اللّازمين، وكذلك سائر الموظفين المختصين بكلّ موضوعية وحيادية كاملة بعيداً عن أساليب التشدّد، أو اختلاق العيوب للأفراد عن سوء تدبّر وجهالة، حتّى لا نخسر الأفراد

المفيدين والجيدين والمؤثّرين أثناء عمليّة تطهير أجهزة الدولة من الفساد والمفسدين.

وليعلم الجميع بأنّ المعيار الذي ينبغي أن يُتّبع هو: أن واقع حال الأفراد الآن هو معيار تقييمهم وليس ماضيهم وبالتالي فلا بد من التجاوز قدر الإمكان عن نقاط ضعف الماضي لدى الأفراد أيام العهد البائد، إلّا إذا ما ثبت بالدليل القاطع أنّ الفرد المعني لا يزال من المفسدين أو المناوئين لمسيرة التغيير.

3 ـ على السادة القضاة سواء منهم العاملون في العدلية أم في محاكم الثورة، أن يُمارسوا عملهم بجدية في إصدار الأحكام الإسلامية في كلّ أنحاء البلاد وبكل حزم، من دون الأخذ بأيّ اعتبار للمقامات أياً كانوا، وأن يستمروا هم وكافة الموظّفين التنفيذيين التابعين لهم على كافة المستويات، بالقيام بمهامهم المهمة واتّباع الأحكام الصادرة وتسيير أمور الناس، دون أيّ تعلّل أو تعطيل، حتّى يشعر الناس بالأمن القضائي اللّازم ويشعروا بأنّ أرواحهم وأموالهم وكرامتهم محفوظة في ظلّ أحكام العدالة الإسلامية.

وليعلم الجميع بأنّ العمل بالعدل الإسلامي لا يختص بالقوة القضائية فحسب، بل ينبغي أيضاً تتم إشاعة هذا الأمر في كافة أجهزة نظام الجمهوريّة الإسلاميّة من البرلمان والحكومة وكل القوى الأمنيّة والعسكريّة والشرطة والحرس الثوريّ والتعبئة 0البسيج) واللجان الثورية وبالتالي فإنّه لا يحقّ لأيّ أحد مطلقاً أن يتعامل مع الناس بطريقة غير إسلامية.

4 ـ لا يحق لأيّ أحد استدعاء أو اعتقال أيّ أحد مهما كانت فترات الاعتقال قصيرة من دون حكم قضائي نابع من الموازين الشرعية. وكلّ من يتم استدعاؤه أو إيقافه بالعنف وبالوسائل غير

المشروعة، فإنّ الفاعل يكون قد ارتكب جرماً ويستحقّ التعزير الشرعي!

5 ـ لا يحقّ لأحد مطلقاً التصرّف بأموال الناس المنقولة وغير المنقولة والتصرّف فيها توقيفاً أو مصادرة إلّا بحكم قضائي شرعي واضح مدعَّمٍ بالأدلة والتحقيق الدقيق.

6 ـ لا يحقّ لأحد مطلقاً دخول بيت أحد أو مقرّ عمله الشخصي دكاناً كان أو مكتباً من دون إذن صاحب ذلك المقرّ، كما لا يجوز استدعاء أحد أو جلبه أو ملاحقته أو مراقبته بذريعة اكتشاف جرم أو ارتكاب ذنب، كما لا يجوز توجيه الإهانات إلى المتهم أو التصرّف معه تصرفاً غير إنساني غير إسلامي. أو التنّصت على الهواتف أو تسجيل مكالمات المواطنين تحت أيّة ذريعة كانت، أو الاستماع إلى صوت تسجيلات أي إنسان بحجة البحث عن جرم أو مركز جريمة أياً كان الجرم عظيماً.

فالتنصّت أو التجسس والبحث عن أسرار الناس، أو التجسّس عليهم سواء مباشرة أم عن طريق الاستماع إلى ما في حوزتهم من مادة سرية هو جرم وذنب لا يجوز السكوت عليه ويستوجب المعاقبة والتعزير الإسلامي، بل إنّ بعضه يندرج في إطار إشاعة الفحشاء، وبالتالي فإنه يندرج في إطار ارتكاب الجرائم الكبرى التي قد تستحق إقامة الحد الشرعي ضد مرتكبيها.

7 ـ إنّ ما ذُكِر أعلاه وأُعلِن أنّه ممنوع لا يندرج على المجموعات المناهضة للثورة والنظام التي تتّخذ من مخابئها السرّية والآمنة منطلقاً للتآمر في إطار مشروع إسقاط النظام الجديد للجمهورية الإسلامية، أو تنفيذ الاغتيالات بحق رموز النظام والشخصيات المجاهدة والناس الأبرياء في الأزقة والشوارع والأسواق، وهي التي تتجمّع في مخابئها السرّية إفساداً في الأرض

ولأجل محاربة الله ورسوله، فإنّ مواجهة هؤلاء ينبغي أن تتم بكل حزم وقوة؛ ولكن مع الاحتياطات الكاملة عبر التنسيق مع المؤسّسات القضائية، وعملاً بالضوابط الشرعية المتّبعة بكل دقة وطبقاً لأوامر وتعليمات العدلية ومحاكم الثورة. ذلك لأن تجاوز الحدود الشرعية حتى مع هؤلاء أمر غير جائز على الإطلاق، تماماً كما أن التسامح والتساهل معه هو أمر غير جائز أيضاً.

كما أنّ المكلّفين بتنفيذ هذه التعليمات لا يحق لهم مطلقاً الخروج عن المهام التي كلّفوا بإجرائها بأي شكل من الأشكال، وأن لا يخرجوا مطلقاً عن الضوابط والحدود الشرعيّة المرعيّة.

وهنا لا بد من تنبيه تلك المجموعات التي تذهب لمطاردة أو ملاحقة المجموعات المناهضة للثورة والنظام، أو مراكز التجسّس بأنّه أثناء ممارسة مهامها الآنفة الذكر، لا يحقّ لها مطلقاً إفشاء ما قد يقع بين أيديها من الأشياء المحرمة بين العامة، من قبيل آلات اللهو أو القمار أو الفحشاء أو المخدرات أو سائر الأشياء، وذلك عندما تدخل بيوت الناس أو مقرّات عملهم عن طريق الخطأ، واكتشفوا وجود تلك الأشياء؛ ذلك لأنّ مثل هذه الأعمال ستعتبر من موارد إشاعة الفحشاء وهو من كبائر الذنوب، فهتك حرمة المواطن المسلم أو تجاوز الضوابط الشرعية حتى في مثل هذه الظروف أمر غير جائز مطلقاً على يد أيّ كان!

إنّ الواجب هو النهي عن المنكر كما هو مقرّر في نظام الأحكام الشرعية الإسلامية، وبالتالي لا يحق لأحد حتّى في مثل هذه الحالات جلب الناس أو توقيفهم أو ضربهم أو شتمهم؛ لأن التعدّي على الحدود الإلهية ظلم وأمر يوجب التعزير لأصحابه والذي قد يصل إلى حد القصاص!

أما أولئك الذين يُكتشَف أنّ مهنتهم هي تجارة المخدرات

وإشاعتها بين الناس، فإن حكم هؤلاء هو الإفساد في الأرض حيث ينطبق عليهم مصداق الساعين في هلاك الحرث والنسل. وبالتالي، فإنّ حكمهم هو مصادرة ما بين أيديهم وتسليمها وتسليمها إلى الجهات القضائية والمحاكم المختصة لإصدار الأحكام المناسبة بحقهم، وهنا أيضاً لا يجوز لأيّ قاض أو حاكم شرعي أن يتخذ أيّ إجراء ضدّهم، أو أن يأمر بالدخول إلى بيوتهم أو أماكن عملهم كما هو الحال مع المتهمين بالتآمر والتجسس، ما لم تنتهِ إجراءات المحاكم المختصة، ويصدر الحكم النهائي والدقيق والواضح بحقهم.

ومن يعمل بخلاف ذلك، فإنّه يستحقّ الملاحقة القانونية والشرعية.

8 ـ إنّ رئيس ديوان القضاء الأعلى للبلاد حجة الإسلام الموسوي الأردبيلي ورئيس الوزراء مكلّفان شرعاً بالقيام بكل ما يلزم لوقف كلّ الانتهاكات الحاصلة والتصرّفات غير اللّائقة بكل حزم وبالسرعة اللّازمة، وأن يختاروا من بين الناس من هم موضع الثقة والاعتماد لتشكيل اللجان المحلية في كافة المحافظات للقيام بهذه المهام، وأبلاغ الناس بتلك الإجراءات حتى يتمكّنوا من مراجعة هذه المقار لتقديم شكاواهم الخاصة بتجاوزات الموظفين وانتهاكاتهم بحق حقوقهم وأموالهم.

وليعلم الجميع أنّه وبعد استقرار النظام الإسلاميّ الجديد على أنقاض العهد البائد، فإنّه لم يعد مقبولاً على الاطلاق أن يتّم ممارسة الظلم لا سمح الله بحق أيّ أحد أو تجاوز المقرّرات الإلهيّة والأخلاق الإسلامية الكريمة باسم الثورة أو الثورية، فالناس بعمومهم بحاجة إلى الشعور التام بإشاعة حالة الأمن والأمان إلى جانب حالة الاستقرار وروح البناء والاطمئنان على كافة المستويات التي ينبغي للناس أن يشعروا بها من جانب كافة أجهزة الثورة

والنظام من لجان ثورية وحرس ثوريّ وأجهزة ومؤسّسات قضائية وليدة.

إنّ هذه المهام هي من واجبات الجميع والتي ستجلب للجميع سعادة الدنيا والآخرة، فيما التخلّف عن القيام بالواجب، أو انتهاك حقوق الناس، فإنّه سيجلب معه غضب القهّار وعذاب الآخرة بعد عقاب الدنيا وجزائه الأكيد...

والسلام على عباد الله الصالحين

روح الله الموسوي الخميني

15

فقه الوحدة والتقريب مقابل فقه الفتنة والتخريب

لم يكن الإمام الخميني يوماً مع إظهار اختلافه مع الآخر، إلّا في حدود التحقيق والبحث العلميّ، كما لم يكن يوماً مع إشاعة ظاهرة الاختلافات بين مكوّنات الأمّة على الرغم من صرامة موقفه وقوة منطقه في الدفاع عن الرأي والرأي الآخر!

كذلك لم يكن يوماً مع مقولة أنّ الحكم هو حكم الغَلَبة إلّا مع أعداء الأمة؛ ولذلك تراه بقدر ما كان حازماً مع الخارج والأجنبيّ كان ليّناً ومتسامحاً مع أهل الداخل!

ولم يخفِ على أحد أنّه كان على اختلاف واضح وصريح وشفّاف مع الكثيرين من أقرانه من علماء الدين والمراجع؛ لكنّه ما عمد يوماً إلى تهميش مواقفهم أو طردها أو دفعها إلى حاشية المسرح السياسي بقوة التقاتل أو بفضل قانون الغَلَبة.

ولا شكّ في أنّه كان باستطاعته وفور استلامه السلطة الكاملة أن يمسح عن الخارطة بكل سهولة، كلّ من اختلف معه عندما انطلق في انتفاضته الشهيرة في الستّينات، ولا يسمح لأحد منهم بأن يُدلي

بدلوه في شيء، فضلاً عن إبراز عقائده، ناهيك عن المشاركة في إدارة شؤون الدولة والحكم.

لقد فعل الإمام العكس تماماً، فقد فضّل عدم الإدلاء بكلّ آرائه وعدم إدراجها في مشاريع الحراك السياسي العام منعاً لإحداث فجوة في صفوف الاتحاد الشعبيّ، أو إحداث تشقّق في صفوف الطبقة الحاكمة، أو حتى في صفوف حركة التضامن الشعبيّ الإقليميّة والعالميّة الواسعة. وفي هذا المجال يكفي أن نذكر مثالاً عن الداخل، وكيف استطاع أن يجذب أو يجبر قيادات الحزب الشيوعي الإيرانيّ ـ تودة ـ لتقف مع برنامجه الهام، حتّى قيل إنّ الحزب استوعب الخمينيّ، فيما العارفون ببواطن الأمور كانوا يعرفون حقيقة الأمر. وأمّا مثال الخارج، فكان حدثاً كبيراً ورائعاً شكّل بمثابة الصدمة الإيجابية لدى الكثيرين، إذا كيف تمكّن في الواقع من أن يجمع من حوله أكبر عدد من الأحزاب والحركات اليساريّة في المنطقة والعالم، إضافة إلى نفوذه الثاقب إلى قلوب العديد من منظّري اليسار العالميّ ومن بينهم ذلك الحدث الصاعقة الذي جعل من منظّر الثورة الفلسطينية الأهم وعضو قيادة الحزب الشيوعي الأردني سابقاً وزعيم التيار الماوي الفلسطيني واللبناني ذات يوم الأستاذ منير شفيق أن يتحوّل تدريجياً إلى الإسلام متوّجاً ذلك بالتشرّف بهذا الدين على يد الإمام الخميني نفسه في حسينية جماران في شمال طهران، وقد كنت شاهداً على هذه النقلة النوعية التي تركت آثارها الطيّبة على مئات الكوادر العربية المناضلة.

وكل ذلك برأيي لم يكن ممكناً، لولا النهج المنفتح والنضالي للإمام في آنٍ معاً، وخطابه الحازم والصارم تجاه الأجنبيّ المستعمر، والليّن والوديّ تجاه دار الإسلام الكبرى، بكلّ تنوعاتها وتضاريسها الاجتماعيّة والفكريّة والفلسفيّة.

حتى نظريّة ولاية الفقيه التي لطالما درّسها لمريديه وطَلَبته والتابعين، وروّج لها واعتبرها عمود الخيمة في مسيرة القومة الدينيّة الكبرى، فإنّه فضّل عدم طرحها منذ اليوم الأول في مسوّدة الدستور، إلى أن طرحها بعض زملائه ومريديه وبعدما أُشبعت شرحاً ونقداً وتفنيداً، فقد تمّ إدراجها بعد نيلها موافقة أكثريّة المجلس الدستوريّ.

إنّه أوّل من توجّه إلى أبناء الأمّة من الشطر المذهبي الآخر وبكلّ قلب مفتوح قائلاً لهم: إنّ أبواب إيران مفتوحة لعلمائكم ومنظّريكم وجندكم لإقامة هذا الدين والدفاع عن الفكر النهضويّ والإصلاحيّ الجديد ومن أجل تسهيل الأمر ورفع بعض الشبهات المحيطة بأجواء الثورة والنهضة الجديدة، كان هو من أمر بمنع طبع جزئين شهيرين من سلسلة مجلّدات علّامة الطائفة الشيعيّة الشهير المعروف بالمجلسي؛ لأن فيها أحاديث ضعيفة قد تنال من مواقف أو سمعة أبناء الطائفة السنيّة الكريمة والشقيقة من العاملين بالمذاهب الأربعة الأخرى المشهورة.

وإن أنس لا أنسى أنّه قد صرّح مبكراً، وعلى الهواء مباشرة في إحدى خطبه الجماهيريّة، بأنّ مجرّد فتح باب الجدل والمناقشة العلنيّة للخلاف السنيّ الشيعي هو من عمل الحرام الذي ينبغي على الجميع اجتنابه!

واستناداً إلى هذه الخلفيّة التي ظلّ يحملها ويتمسّك بها حتى النفس الأخير، فإنّه لم يترك مناسبة تجمع المسلمين إلّا واستثمرها للمّ شملهم أكثر فأكثر، ولردم الهوّة بينهم أكثر فأكثر، والتنازل عن كثير من المواقف أو الآراء الخاصة بالمذهب لمصلحة عامّة المسلمين.

وهكذا، فقد كان أول من طلب من مواطنيه، وتحديداً من أتباع المذهب الإثني عشريّ الجعفريّ، أن يصلّوا خلف أئمة المسلمين من

أهل الحجاز، وأن يعملوا بفرائض العمرة والحج برأي أولئك على الرغم من أنّ المتشدّدين من الطرف الآخر لم يتركوا مناسبة إلّا وحاولوا أن يُخرجوا فيها هذه الطائفة الكريمة من ملّة المسلمين، مستخدمين كلّ وسائل الدعاية كالمناشير والصحف العلنية وغيرها والتبليغ المباشر وباللغة الأم الفارسية، وتوزيعها على حجاج بيت الله الحرام!

وغنيّ عن القول في هذا المجال أنّ الإمام المجدّد والمصلح الكبير، كان يحاول التركيز في مثل هذه المناسبة العظيمة على القواسم المشتركة، ويطالب بالابتعاد عن كلِّ ما يوهن جمع المسلمين بالقول:

«إنّ إثارة الخلافات بين المذاهب الإسلاميّة، إنّما هي من الخطط الإجراميّة التي تدبّرها القوى المستفيدة من الخلافات بين المسلمين، وذلك بالتعاون مع عملائهم المنحرفين، بمن فيهم وعّاظ السلاطين الذين اسودّت وجوههم أكثر من سلاطين الجور أنفسهم».

وحتى يقطع دابر الفتنة من أساسها، ويشير بالتصريح ولا يكتفي بالتلميح فقط إلى أهداف تلك الحملة الشعواء التي تسعى من وراء ذلك لتقسيم المسلمين والنيل منهم فرادى ومشتّتين، فقد كان يقول في أكثر من مرة في بياناته الشهيرة إلى حجّاج بيت الله الحرام:

«إنها الوحدة الإسلاميّة التي يريد هؤلاء الجناة الطامعون، والمتسلّطون، ومن معهم من حكّام الجور والظلمة، ومن صغار العملاء، النيل منها؛ وذلك لاستغلال هذه الخلافات بين الشعوب والحكومات لصالحهم؛ إذ كلما وُضِع أساسٌ للوحدة بين المسلمين هبّوا لمحاربته بكلّ ما أُوتوا من قوّة، وعملوا على نشر بذور الخلاف من جديد».

وحتّى لا يتقدّم الأعداء خطوات أخرى إلى الأمام في سبيل النيل من هذه الوحدة، فكان يقول سماحته:

«في هذا التجمّع الإلهيّ العظيم الذي لا تستطيع أيّة قدرة سوى القدرة الإلهيّة أن تعقده، فإنّ ما يتوجّب على المسلمين هو أن يباشروا إلى دراسة مشاكل المسلمين العامّة، ويبذلوا جهودهم بالتشاور لحلّها».

إنّها الركيزة الأساسيّة التي وضعها ذلك الرجل المجدّد لعقد مؤتمر الحج السنوي الذي تفرّعت منه عشرات اللجان والمنتديات التي صارت تُعقد بشكل منتظم وكل عام من أجل مناقشة هموم المسلمين ومشاكلهم تحت لواء البراءة من المشركين، وهو الركن الأساس للحج كما هو معروف، وهو لا يقلّ أهميّة عن سائر الطقوس التي يُعمل بها في الحج، إن لم يكن هو عمود خيمتها!

ولطالما حذّر الباكستانيين والأفغان والشعوب العربيّة، وقبلهم جميعاً سكان بلاده الأصليّين الإيرانيين، من كافة الملّل والنحل والأقوام التي ينحدرون منها، بأنّ داءكم الأساس إنّما هو الفرقة والتشتّت والانقسام والعرقيّة والقوميّة العصبويّة المقيتة، وأن دواءكم الذي ما بعده دواء إنّما هو في الوحدة الإسلاميّة!

ولذلك تراه أوّل من نادى إلى توحيد المناسبات الدينيّة قدر الإمكان، وكانت بدايته في محاولة توحيد يوم ولادة الرسول الأكرم (ص) وهي المناسبة التي عُرِفت في ما بعد بأسبوع الوحدة الإسلاميّة، وهو ما يحدث لأوّل مرّة في التاريخ الإسلاميّ!

إنّ تحوّل التحدّي إلى فرصة، وهو ما يعرف اليوم في علم السياسة والديبلوماسية بفنّ إدارة التحدّيات، كان الإمام الخمينيّ أوّل من طبّقه في مجال التغلّب على تشتّت آراء المسلمين وتباين آرائهم

حول يوم مولد نبيّهم، أهو يوم الثاني عشر من ربيع الثاني أو السابع عشر منه، فدعاهم إلى اتخاذ أسبوع كامل للاحتفال بهذه المناسبة، واعتمادها كذلك مناسبة لمؤتمر سنويّ دائم الانعقاد يبحث في أهمية هذا الحدث الإلهيّ الكبير والواقعة الدنيوية التي هزّت عروش القياصرة والكسروية يوماً!

ولم يكتف سماحته بذلك، فقد اختار يوم الجمعة الحزينة كما كان يسمّيها أهل فلسطين المحتلة وعدد من أهالي بلاد الشام، وهي الجمعة الأخيرة من شهر رمضان المبارك، اختارها يوماً عالمياً للقدس ومن أجل القدس أولاً باعتبارها أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، والتي منها أسرى الله بنبيّه محمد (ص)وعرّج به إلى السماء، وثانياً ليحوّل المصيبة والحزن الانتظاري مرّة أخرى إلى مادة للتظاهر والانتفاضة والهجوم ضد المحتل والغاصب للأرض والحقوق!

إنّها مرّة أخرى، مناسبة لتحويل التهديد إلى فرصة، وهذه المرّة لتحويل الحزن الصامت إلى غضب ساطع، كما تقول الأهزوجة الشعبيّة العربيّة الواردة على لسان الفنانة الكبيرة فيروز وهي تحدّثنا عن زهرة المدائن هذه وقدس الأقداس عند الإخوة المسيحيين أيضاً، وهم الذين يعانون مثلهم مثل إخوتهم وأشقائهم المسلمين من جور الغاصبين، لتأتيَ الوحدة هذه المرة على نطاق أوسع يضمّ كلّ أحرار العالم من كلّ ملّة ودين!

16

رسائل ديبلوماسيّة متناثرة

على الرغم من عدم تدرُّب الإمام الخمينيّ على العمل الدبلوماسيّ، ولم يذهب إلى أيّ معهد من معاهده العليا، وقد لا يكون من أصحاب الرأي المهتمّين بأصالة العمل الديبلوماسيّ بحدّ ذاته، إلّا أنّه كان حريصاً على المجاملة كما المجادلة بالتي هي أحسن مع معشر الدبلوماسيين، والالتزام بالحدّ الأدنى من التخاطب الدبلوماسيّ مع رؤساء وزعماء الدول الذين كاتبوه في المناسبات الوطنيّة؛ لكنّه لم ينس مرّة من يمثّل في الأساس، وإلى من ينتمي، ومن هم أولئك العامة من الناس الذين أوصلوه إلى سدّة الزعامة حتّى صارت تأتيه مثل تلك الرسائل، وهذا ما جعله يبقى أميناً لهم ولمبادئه ومبادئهم التي من أجلها أطلق صيحته الأولى ضد الظلم والطغيان ويحرص على أن يخاطب كلّ من يخاطبونه، باسم أولئك المؤمنين ووجدانهم الحيّ على الدوام.

ومن يقرأ ما جاء بين سطور تلك الرسائل الجوابيّة سرعان ما سيكتشف أنّ الرجل، وعلى الرغم من الأسلوب المَرِن الذي اختاره

لإيصال الأفكار التي أراد إيصالها إلى الطرف المقابل، لم يخرج عن آداب اللياقة والاحترام، في الوقت نفسه الذي لم يجامل فيه أحداً قريباً كان أم بعيداً، من دينه كان أم من دين آخر، عندما يتطلّب الأمر وضع النقاط على الحروف، سواء، أم في ما يخصّ مظلوميّة شعبه الذي كان يرزح تحت العدوان والحرب المفروضة أو في ما يخصّ محاولات النيل من الدين والعقائد والقِيَم الدينيّة والإنسانيّة التي تمّ التهجّم عليها والإساءة إليها باسم حرّية الفكر والتعبير!

ولمعرفة لغة الخطاب الدبلوماسيّ التي كان يفضّلها الإمام، وطريقة تعامله مع الأحداث والوقائع المحليّة والعالمية، اخترنا لكم باقة من رسائله إلى قادة العالم المختلفين والتي أجاب فيها عن رسائل تهنئتهم له بالأعياد الوطنيّة أو المناسبات الرسميّة المختلفة.

وتجدر الإشارة إلى أنّنا اخترنا بعض تلك الرسائل كما هي في كامل نصها، كما اخترنا أخرى ببعض من مقاطعها الهامة والمعبّرة، مبتدئين أولاً برسالته التاريخيّة والمعبّرة بشكل لافت عن تلك المرحلة التي سبقت الانتصار، وهي الرسالة الجوابيّة من سماحته إلى ياسر عرفات (أبوعمار) قائد الثورة الفلسطينيّة آنذاك، والذي كان قد أرسل إليه رسالة دعم وتضامن واستعداد للمساندة، حملها إليه مندوب خاص في حينها إلى مدينة النجف الأشرف؛ حيث كان الإمام الخمينيّ لا يزال في المنفى، وحين كانت معالم الانتصار لم تظهر بعد:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حضرة السيد ياسر عرفات، رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية

تحية وبعد. . .

إنّ كتابكم المؤرّخ 18 شهر رمضان المبارك 1398 الذي وصلنا عن طريق مندوبكم الخاص، يدعوني لإكبار الثورة الفلسطينيّة، وشكرها على عنايتها وانتصارها للشعب الإيرانيّ الذي ما زال يتمرّغ في النار وحمّامات دم الشاه الذي ضاق ذرعاً بالانتفاضات الحقيقية لكامل الشعب الإيرانيّ، والتي واجهت أساليبه في التعذيب والحبس والنفي والقمع والمذابح الجماعيّة هزيمة كاملة في هذه الأيام. وفيما يحاول الشعب من خلال التظاهرات السلميّة والموضوعيّة التي نظّمها انتزاع أبسط حقوقه، فإنّه يُواجَه من قبل النظام بإعلان الحكم العسكريّ، وبدون أي مبرّر قانوني في اثنتي عشرة مدينة إيرانيّة، ثم يتمّ إمطار هذا الشعب الإيرانيّ الواعي والحرّ والأعزل بوابلٍ من الرصاص - تماماً كالحالات السابقة - وقد وصل حتّى الآن عدد القتلى إلى أكثر من أربعة آلاف قتيل.

إنّ الشعب الإيرانيّ الذي ضاق صدره بسلطنة الشاه الطويلة وغير الشرعيّة، والذي نهض لاستعادة حرّيته واستقلاله الضائع، يرفض وجود الشاه وحكمه الذي ما زال يسرع بالبلاد إلى شفير الكارثة التي ستفقد البلاد وجودها الماذي والمعنوي.

إن الشاه يصدّر نفط إيران - البلد المسلم - إلى إسرائيل من أجل قمع وتدمير الشعب المسلم، هذا في الوقت الذي يواجه فيه من يبدي اعتراضه على هذا العمل غير الإنساني برؤوس الحراب. إنّ الشاه يقوم اليوم بفرض مغتصبي حقوق الأمّة الإسلاميّة بالقوّة.

حضرة السيد أبو عمار

إنّنا نختلف مع الشاه في سياسته ومواقفه من القضيّة الفلسطينيّة، كما نحارب إسرائيل وأنصارها، ونلتقي معكم في ثورتكم ضدّها، وإنّنا نسعى دوماً إلى كشف القناع عن جرائم الصهيونيّة ووضعها موضع أنظار شعوب العالم.

أمّا اليوم والشعب الإيرانيّ يُداس بأقدام جلاوزة الشاه الغاشمة، ويُحاصَر بالمدافع والدبابات ووابل النيران الذي يصبّه الجنود الصهاينة - في شوارع طهران - والذين سخّرتهم سلطة الشاه لضرب الشعب الإيرانيّ الأعزل - في مثل هذه المحنة - فإنّنا نأمل أن تكونوا معنا في معركتنا هذه وأن توصلوا - بوسائل إعلامكم التي تملكونها - صوتنا إلى العالم.

إنّ الصين الحمراء ذات الشعارات الثوريّة، وأمريكا النموذج العالميّ لاستغلال الشعوب، والسوفيات منبع الدجل والكذب وبريطانيا العريقة في استعمار الشعوب وهم يتضافرون مجتمعين، على قمع أمة ناهضة تسعى لاستقلالها وعدم انحيازها للشرق أو الغرب، مدافعين عن حكم الشاه، ومع ذلك كلّه فإنّ الشاه لم يخجل من اتّهام الشعب الإيرانيّ وإظهاره وكأنّه خليط من الشيوعيّين الحمر والرجعيّين!، إلّا أنني على يقين من انتصار شعبنا الواعي.

أرجو من الله تعالى لكم التوفيق، في سحق إسرائيل الغاصبة، كما أرجو منه تعالى صيانة واستقلال الدول الإسلاميّة جميعاً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

روح الله الموسوي الخميني

16 شوال 1398

وواضح هنا الموقف الصارم والحازم للثائر أمام الثائر مع كلّ الدبلوماسيّة التي اعتمدت عند الإشارة إلى الأنظمة الرسميّة العربيّة. هذا بالإضافة إلى الحيف والظلم الكبيرين اللّذين كانا يحاصران الانتفاضة الإيرانيّة الكبرى من جانب مجموع الدول العظمى على اختلاف أيديولوجيّاتها وهو ما يظهر بشكل واضح في استنكار الإمام المجدّد والمصلح الكبير ذلك الإجماع الدولي غير المبرر وغير المقنع من جانب ما صار يطلق عليه في ما بعد بالمجتمع الدوليّ. فهذا المجتمع تقع على عاتقه مسؤوليّة العديد من النزاعات والحروب المدمّرة التي أُشعِلت على امتداد النصف الثاني من القرن العشرين والعقد الأوّل من القرن الحاليّ، بالإضافة إلى بقاء العديد من الأزمات والملفّات العالمية الساخنة والمزمنة عالقة دون حلول أو انفراجات!

وفي ما يلي رسالة شكر جوابيّة من الإمام الخميني إلى الجنرال ضياء الحق، رئيس جمهورية باكستان:

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الجنرال ضياء الحق رئيس جمهورية باكستان

لقد وصلتني رسالتكم الشريفة القاضية بإبراز التضامن بين الشعبين المسلمين الكبيرين إيران وباكستان وهو ما أسعدني، إنّ التضامن الإسلاميّ العظيم الذي هو على رأس أولويّات التضامنات، ينبغي أن يكون الدافع القوي للوحدة بما لا يدع مجالاً لأيَّة دولة أجنبية حتى أن تتخيّل أو تتوهّم القدرة على التسلّط أو الهيمنة على بلدان العالم الإسلاميّ!

وللأسف الشديد، فإنّ الخبراء الأجانب قد استطاعوا ومنذ زمن

طويل، أن ينفذوا إلى داخل كيانات البلدان الإسلاميّة، وتمكَّنوا من تفتيت الشعوب الإسلاميّة إلى مجموعات متفرّقة، كما استطاعوا ومن خلال دعاياتهم الواسعة، وتحريضات التابعين المحلّيين لسياساتهم التخريبية، أن يبنوا جدراناً فاصلة في ما بينهم، بل وان يجعلوهم يقفون متنازعين بعضهم في مقابل البعض الآخر...

إنّ قيام حزيران من العام 1965 وما تبعه من نضالات لشعبنا أوصلتنا في السنوات الأخيرة إلى قطف ثمار الانتصار الكبير، وقد استطاعت عملياً بقوة الإيمان ووحدة الكلمة وبإرادة الله تعالى وفضله أن نقطع أيدي الظالمين والناهبين المحلّيين والأجانب لثرواتنا ممن كانوا مدجّجين بالسلاح من رؤوسهم حتى أخمص قدميهم...!

إنّنا واستناداً إلى علاقاتنا التاريخيّة الوطنيّة والأهمّ منها الإسلاميّة التي تربط بين بلدينا نجد لزاماً علينا أن نحافظ على تلك العلاقات على أساس الاحترام المتبادل؛ وإذ أطلب من حكومة الثورة الإسلاميّة المؤقّتة مواصلة المباحثات مع جنابكم، فإنّني أطلب من الله تعالى العظمة للإسلام وللشعوب الإسلاميّة كافة...

- وهنا رسالة شكر جوابية إلى رئيس دولة الإمارات العربيّة المتّحدة:

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة السيد الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رئيس دولة الإمارات العربيّة المتّحدة

لقد وصلتني برقية تهنئة حضرتكم لي بمناسبة حلول العام الهجري الجديد؛ وإذ أشكركم عليها إلّا أنّه وللأسف أودّ القول إنّ حلول هذا العام الجديد يصادف مع وقوع مصائب كبرى للمسلمين في

العالم وكارثة لبنان في المقدّمة منها، حيث تتمّ إبادة آلاف المسلمين، وتهتك أعراض مئات النساء والفتيات المسلمات، ويتم وأد الأطفال وهم أحياء؛ لكنّ المصيبة الأكبر هي تلك اللاّمبالاة التي يبديها العديد من الدول الإسلاميّة وهم يتفرّجون على تلك المصائب، وما يثير الأسف أكثر أيضاً هو أنّه وبدلاً من أن تصبّ الجهود لمواجهة العدو الأساس للإسلام، وتقطع العلاقات مع أمريكا الهيمنية والتوسّعية والتي تقف وراء كلّ تلك الجرائم الوحشية، فإنهم يوجّهون جهودهم المعادية صوب الجمهورية الإسلاميّة، تلك الجمهورية التي ما قامت إلّا من أجل تدعيم ركائز الإسلام العزيز والدفاع عن مبادئه المقدسة، ولم يتوانوا عن دعم وإسناد صدّام الدمويّ وحزبه حزب البعث العراقي الكافر، بكل الوسائل الماديّة والمعنوية، الأمر الذي زاد من شدة الحرب الصدّامية المفروضة على إيران الإسلاميّة، والامتناع عملياً عن تجريمه ومحاكمته وفرض الغرامة عليه.

أطلب من الله تعالى أن يخلّص كلّ زعماء الإسلام من غفلتهم وانقيادهم، وأن ينصرهم على أعداء الإسلام والسلام عليكم

روح الله الموسوي الخميني

رسالة شكر جوابية أخرى لرئيس دولة الإمارات العربية المتحدة

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة السيد الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الامارات العربيّة المتّحدة

لقد وصلتني برقية تهنئة حضرتكم لي بمناسبة حلول عيد الأضحى

المبارك؛ وإذ أشكركم عليها، وأقدّم لجنابكم ولشعب بلدكم المسلم والشقيق كلّ التهاني أيضاً بمناسبة هذا العيد الإسلاميّ الكبير، إلّا أنه لا بدّ لي من أن أقول إنه لم يبق في الواقع مكان للعيد والتهاني مع هذه المصائب العظمى التي لحقت بالعالم الإسلاميّ، لا سيما الشعب الإيرانيّ المظلوم، ففي الوقت الذي يتسلّل فيه الأمريكيون خلسة إلى خليج فارس، ويسقطون فيه طائرة مدنية إيرانيّة ويقتلون أكثر من 290 مسافراً بريئاً من النساء والأطفال ويمزّقون أجسادهم بصواريخهم، ويقوم فيه خادمهم وعميلهم التابع صدام المجرم بقتل وإبادة المئات بل والآلاف من أبناء حلبجة ـ العراقيين ـ ومثلهم من الإيرانيين في جبهات القتال بواسطة القنابل الكيمياويّة ليتساقطوا متناثرة أجسادهم كأوراق الشجر، وفي الوقت الذي يبخل فيه حكام المنطقة والدول الإسلاميّة حتّى عن إدانة لفظية لمثل هذه الأعمال، فأيّ مكان للعيد والتهنئة يبقى لدينا، والسلام عليكم

روح الله الموسوي الخميني

- رسالة شكر جوابية إلى الرئيس الجزائري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حضرة السيد الشاذلي بن جديد رئيس جمهورية الجزائر الديمقراطيّة الشعبيّة

لقد وصلتني رسالة تهنئتكم بمناسبة الذكرى السنويّة لانتصار الثورة الإسلاميّة؛ وإذ أشكركم عليها فأنّني أودّ التأكيد لكم بأنّ شعب إيران المسلم العظيم قد استطاع خلال السنوات العشر الماضية أن يثبت للمسلمين جميعاً، ولكل الشعوب المضطهدة أنّه ومن خلال

الاتكال على الله تعالى والاستقامة والصمود أمام المؤامرات والمصاعب، أن يهزم أعتى القوى العظمى في العالم ويجبرها على الاستسلام.

وكلّي أمل بأن تحذو سائر الشعوب الإسلاميّة مستلهمة هذه التجربة مُتّخذة طريق المواجهة مع أعداء الإسلام؛ ليحقّقوا الانتصار أيضاً على أولئك، وأن لا يسمحوا لأعداء الإسلام أن يجعلوا مقدّسات الإسلام لعبة بين أيديهم أو يوجّهوا الإهانة لها، فيما الكثير من زعماء العالم الإسلاميّ يمرون على مثل هذه المؤامرة الكبرى مرور الكرام، ولا يقومون بواجبهم الإسلاميّ أيضاً في ما يخص تنفيذ حكم إعدام المتآمرين من أمثال مؤلّف كتابَ الآيات الشيطانيةً وحماته.

أسأل الله اليقظه لكلّ الشعوب الإسلاميّة والسلام عليكم

روح الله الموسوي الخميني

- مقطع من رسالة شكر جوابية للرئيس الأندونيسي

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الجنرال سوهارتو رئيس جمهورية اندونيسيا

وصلتني برقية تهنئتكم...

لقد لجأ الأعداء مؤخّراً إلى حيلة جديدة لإعلان الحرب على كافة الشعوب الإسلاميّة ومقدّسات الإسلام وذلك من خلال استئجار جمع من العملاء لتأليف كتاب الآيات الشيطانيةً الكافر، والذي نأمل من خلال يقظة المسلمين والاستفادة من الإمكانيّات الكثيرة التي

تحت تصرفهم أن يتمكّنوا من إفشال هذه المؤامرة الخيانية وأن يقوموا بواجبهم الإسلاميّ في قطع أيدي أولئك العملاء البائعين أنفسهم للأعداء، ولمّا كنتم أكثر الدول الإسلاميّة عدداً فإنني أجد أن واجبكم في تنفيذ هذا الواجب الإلهيّ أكثر ثقلاً من غيركم، أسأل الله التوفيق لكل الشعوب الإسلاميّة...

روح الله الموسوي الخميني

- مقطع من رسالته إلى رئيس وزراء الهند

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة السيد راجيف غاندي رئيس وزراء الهند

لقد وصلتني برقيتكم.....

اليوم ومع تأليف ونشر كتاب «الآيات الشيطانية» الكافر، فقد قرّر الأعداء أن ينزلوا بقواهم مباشرة إلى النزال مع الإسلام العزيز، وهي المؤامرة التي ستلقى بعون الله تعالى نفس مصير سابقاتها إنّ حضرتكم وبما لديكم من أكبر تجمع لمسلمي العالم من بين البلدان غير الإسلاميّة، فإنّنا نأمل منكم أن تساعدوا في هذا المجال من أجل تعزيز وتمتين العلاقات التقليدية بين بلادكم وإيران وسائر البلدان الإسلاميّة.

روح الله الموسوي الخميني

- مقطع من رسالة الإمام إلى رئيس جمهورية مالديف

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة السيد مأمون عبد القيوم رئيس جمهورية مالديف

لقد وصلتني برقيتكم...

إنني أتعجّب من العالم الإسلاميّ الذي يرى كيف أنّ مجرماً مثل صدّام الدموي يقوم في لحظة واحدة بإبادة آلاف الأبرياء من نساء وأطفال في بلدة حلبجة كيف لا يقومون بطرده من بينهم، وكيف لا يطهّرون العالم الإسلاميّ من وصمة العار هذه، وللأسف فإنه وخلافاً للمتوقّع فإنّ قيادات البلدان الإسلاميّة تمرّ على هذه الكارثة الإنسانيّة الكبرى التي مرّت على العالم الإسلاميّ دون أي اكتراث وكأنّ شيئاً لم يحدث، فإلى الله المُشتكى

روح الله الموسوي الخميني

- مقطع من رسالته إلى رئيس ألمانيا الشرقية

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة السيد إريك هونيكر رئيس جمهورية ألمانيا الشرقية

لقد وصلتني برقية التهنئة...

لقد تمكّن الشعب الإيرانيّ الشريف خلال العقد الماضي من دحر كافة أنواع المؤامرات والتحرّكات العدائية لدول الشرق والغرب، واليوم أيضاً، فإنّه يواجه مؤامرة جديدة حِيكت من قِبل الصهاينة وحلفائهم الغربيين والقاضية بطبع ونشر كتاب «الآيات

الشيطانية» الكافر الذي يحتوي على السخرية وإهانة أكثر معتقدات المسلمين قداسة، كما وُجّهت الإهانة إلى أكثر من مليار مسلم، وأمّا نحن من جهتنا، فإنّنا لا نزال على قناعتنا مثل السابق بأنّ هؤلاء الأعداء لن يحصلوا على شيء بعونه تعالى، ولن يحصدوا سوى الخيبة والخذلان.

روح الله الموسوي الخميني

- مقطع من رسالة أخرى للسيد هونيكر رئيس جمهورية المانيا الشرقية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لقد وصلتني برقية التهنئة....

كلّي أمل أنّ العالم المليء بالفساد والتحلّل، أن يستطيع اليوم، ومن خلال اغتنام الفرصة مستفيداً من تعاليم السيد المسيح (ع) الإنسانيّة، رفعَ الغبن والظلم والعسف عن البشريّة، ويساهم في خلاص المحرومين في العالم أجمع بصورة واقعية وعملية.

روح الله الموسوي الخميني

- مقطع من رسالة إلى رئيس جمهورية الصين الشعبية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حضرة السيد يانغ شانكون رئيس جمهورية الصين الشعبية

لقد وصلتني برقية تهنئتكم...

إنّهم اليوم قرّروا منازلة الإسلام من جديد من خلال تأليف ودعم كتاب «الآيات الشيطانية» وذلك بهدف كسر الإسلام والنبيّ الأكرم (ص)، لكنّنا على اطمئنان تام بأنّهم هذه المرة أيضاً سيفشلون، ولن يحصدوا سوى العار والضرر والخذلان، وما نتوقّعه من كلّ الشعوب الحرّة في العالم هو المساهمة في منع حصول مثل هذه الإهانة لمقدّسات أكثر من مليار مسلم في العالم، وأن يُدينوا هذه المؤامرة التي يندى لها كلّ جبين.

روح الله الموسوي الخميني

ـ مقطع من رسالته الجوابية إلى رئيس جمهورية المجر

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة السيد رئيس مجلس رئاسة جمهورية المجر الشعبية

لقد وصلتني برقية تهنئتكم. . . .

إنّ آخر ما سمعه العالم من جرائم الطاغية صدّام التي أباد فيها الآلاف من نساء وأطفال حلبجة الأبرياء في ثوانٍ، قد بيّضت عملياً وجوه كافة جلادي التاريخ. وللأسف فإن هذه الكارثة المهولة لم تتم إدانتها كما يجب ما جعل يد مجرم القرن طليقة لاقتراف جرائمه القادمة.

روح الله الموسوي الخميني

ـ مقطع من رسالة الإمام الجوابية لرئيس جمهورية بلغاريا

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة السيد تيودور جيكيف رئيس جمهورية بلغاريا الشعبية

لقد تلقيت برقية تهنئتكم...

نامل أن يكون العام الميلادي الجديد فرصة تغتنمها قيادات العالم لا سيما البلدان المسيحية منها، بأن تجعل من تعاليم المسيح (ع) السماوية والمتعالية مثلاً أعلى لها من أجل رفع الغبن والتميز والمحرومية من على كاهل الشعوب المضطهدة والمحرومة، وذلك من خلال إجراءات عملية وجدية.

روح الله الموسوي الخميني

ـ مقطع من رسالته الجوابية لرئيس جمهورية المكسيك

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة السيد كارلوس سانتاس دوغورتاي رئيس جمهورية الولايات المتحدة المكسيكية

لقد وصلتني برقية تهنئتكم...

آمل أن تجدوا في نضالاتنا المبنيّة على تعاليم الإسلام السامية، والمستندة إلى الإيمان بالله والاستقامة والصمود بوجه مؤامرات الأعداء ملهماً لسائر شعوب العالم الواقعة تحت نير الاستعمار، وأن تتمكّنوا بنفس الطرق والأساليب من أن تخلّصوا أنفسكم من سلطة المستعمرين.

روح الله الموسوي الخميني

- مقطع من رسالته الجوابية إلى رئيس جمهورية نيكاراغوا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حضرة السيد دانييل أورتيغا رئيس جمهورية نيكاراغوا

لقد وصلتني برقية تهنئتكم....

آمل أن تجدوا في ثورتنا الشعبيّة والإسلاميّة الأصيلة، والمقاومة الشجاعة التي أبداها شعب إيران البطل تجاه مؤامرات الأعداء المختلفين، ملهماً لكم وطريق خلاص لسائر الشعوب المظلومة والواقعة تحت نير القيود العالمية، وأن نراكم وقد تحرّرتم من سلطة المستعمرين لا سيما أمريكا الهيمنية الجشعة.

روح الله الموسوي الخميني

وأخيراً وليس آخراً، لا بأس أيضاً بالاطلاع على نص الرسالة الحازمة والجازمة والقاطعة التي بعث بها سماحته إلى مجلس قيادة الثورة، بعد سماعه عن نية وفد أو ممثّلين يريد الرئيس الأميركي جيمي كارتر أن يبعث بهم إلى طهران لملاقاته والتحدّث إليه وإلى أعضاء من القيادة الإيرانيّة، في مهمة وساطة قيل إنها أرادت إحداث نوع من فك اشتباك بين العاصمتين عبر إحداث ثغرة بين الإمام والطلبة الجامعيين الذين احتلوا السفارة الأميركية أوائل الثورة في محاولة للتسلّل إلى جسم القيادة، وتالياً عزل الطلبة عنها من أجل تحرير الرهائن، فكانت رسالة الإمام الناريّة القويّة إلى مجلس قيادة الثورة حينذاك، وهي الرسالة الوحيدة للإمام من دون البسملة، وإليكم نصها:

المخاطبون: مجلس قيادة الثورة الإسلاميّة والمسؤولون الحكوميّون

«طبقاً لما اطّلعت عليه، فإنّ ممثلين خاصين عن كارتر في طريقهم إلى إيران، وإنّهم بصدد القدوم إلى قم وإنّهم يسعون للقائي؛ لذا أجد لزاماً عليّ أن أذكّر بأنّ الإدارة الأمريكية التي تحتفظ بالشاه، إنّما تعلن عمليا بوضوح معارضتها، من جهة أخرى فإنّه وكما قيل فان سفارة أمريكا في إيران تلعب دور مركز تجسّسي لأعدائنا ضد حركة نهضتنا الإسلاميّة المقدّسة. وعليه فإن اللقاء معي من قبل هؤلاء الموفدين الخاصين غير ممكن أبداً، كما عليّ أن أضيف ما يلي:

1 ـ لا يجوز لأعضاء مجلس قيادة الثورة الإسلاميّة اللقاء بهؤلاء بأي وجه من الوجوه

2 ـ لا يحقّ لأي مقام مسؤول أن يلتقي بهؤلاء.

3 ـ إذا ما أقدمت أمريكا على تسليم الشاه المخلوع ـ هذا العدو رقم واحد لشعبنا الإيرانيّ العزيز، وأن توقف عمليّاتها التجسّسية ضد نهضتنا، فإنّ طريق المفاوضات حول بعض العلاقات التي هي لمصلحة شعبنا سيكون مفتوحاً.

روح الله الموسوي الخميني

وكما تلاحظون معي هنا، فإنّ الرجل قد خاطب كلّ هذا الجمع المتنوّع من المسؤولين بكلّ ما تتطلّبه بروتوكولات الدبلوماسية وأدبيّات السياسة، من دون أن ينسى ضرورة تبليغ رسالته الأساسية التي يعتقد أنّه مكلّف بها كعالم دين رباني وزعيم إصلاحيّ مجدّد في الخطاب السياسي العام.

ولذا نرى أنّ ما جمع بين كلّ هذه الرسائل المتناثرة في الواقع ليس سوى ذلك الهم الواحد الذي يحمله من مثله، ألا وهو نقل رسالة الدعوة العمومية للقيام ضد الظلم والتمييز والحرمان، إلى كلّ

من يمكن أن تصل إليه مثل هذه الرسالة، بالإضافة إلى تسجيل موقفه التاريخيّ الذي لم يتزحزح عنه يوماً، ألا وهو عدم قبوله النزول عند رغبة الهيمنين وطلاب الحروب من العُتاة الدوليين مهما مكروا ومهما تحايلوا؛ ذلك أنّ ما تعلّمه من مبدأ الاستقامة منذ نعومة أظفاره، والتي شب عليها وشاب، ظلّت هي هي عقيدته الراسخة التي لم تتزحزح والتي واكبته طوال حياته، حتى أنه قال يوماً في أحد أقواله الشهيرة وهو يبجّل الرسول الأكرم محمد بن عبد الله الذي ينقل عنه أنّه قال شيبتني سورة هود، وهي السورة التي وردت فيها الآية الكريمة: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ بأنّ هذه السورة العظيمة تشيّب رأس كلّ مؤمن مثابر على طريق الحق.

وهذه السورة ينبغي أن تكون نبراساً لنا جميعاً في الاستقامة التي برع فيها الأنبياء والرسل لا سيما النبيّ الخاتم (ص) وكل من سار على دربه من المجدّدين الذين إنّما نجحوا في مشروعهم الإصلاحيّ وإحيائهم للدين؛ لأنهم كانوا ينظرون بعين الله أولاً ومن ثم يرمون ببصرهم أقصى القوم معيرين جماجمهم لله، ومسلّحين بقدرة لا إله إلا الله، وضاربين بقوته وحوله تمكيناً لبرنامجهم الإصلاحيّ الكبير، كما فعل الإمام الخميني العظيم.

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾

17

منشور التغيير الأخير

يقترب الرجل الرمز والظاهرة والزعيم من التسعين، وتحين ساعة الرحيل، لكن لا أحد يعرف ماذا يخبّئ الدهر لإيران من بعده، لا سيما وأنه لم يجمع الذهب والفضة كما فعل ويفعل الكثيرون، ليوظّفهما في تشكيل حزبٍ مُوالٍ أو يوزّعها على نخبة تسبّح بحمده أو تكيل له الثناء من بعده، أو تمجّد إنجازاته، كما لم يُوص أحداً بخلافته أو يوظّف أياً من إمكانات الزعامة أو الدولة أو السلطة في توريث ابن له أو خليفة. فالإمام الخمينيّ اعتمد في كلّ ذلك على حسّ الناس وسلامة إجماعهم وسلاسة انتقال السلطات ـ التي لم يكن ليمتلكها أصلاً كما تمتلكها الزعامات عادة ـ إلى خلفه من بعده على يد ثلة ممن ائتمنهم على الثورة والدين والوطن من حوارييه، وهؤلاء اعتادوا التأدّب معه أثناء حياته وقد علّق الآمال عليهم بأن يبقوا متأدّبين كذلك مع شعبهم وأوفياء لحقوقه، على الرغم من معرفته بغريزة حبّ الجاه التي لا تغادر أنفس أكثر الصالحين والأولياء تُقى، إلّا قبل مغادرة الدنيا بقليل كما هو معروف في الحديث الشهير، بأنّ آخر ما يغادر نفوس الصالحين والأولياء حب الجاه!

لهذه الأسباب وغيرها أعدّ الإمام العدّة مبكراً كاتباً وصيّته «الإلهيّة السياسية» كما سمّاها لتكون نبراساً لمن سينتخبه الخبراء ووجدان الرأي العام من بعده، وهكذا كان بالفعل، فما أن ودّع الزعيم دار الفناء في الساعة العاشرة وعشرين دقيقة من ليل يوم السبت، الثالث من حزيران من العام 1989 للميلاد، حتّى تداعى الرجال من التلامذة والحواريين لفتح الوصية وقراءتها قبل انتخاب الخليفة من قبل مجلس خبراء القيادة على مرأى ومسمع من الرأي العام، وعلى الهواء مباشرة حتّى تكون شاهدةً على عصر من سيخلفه من الرجال، ومعياراً وميزاناً يوزن به ـ أي الوصية ـ خلفاؤه من بعده!

فماذا حملت الوصيّة التاريخية تلك من رسالة أخرى؛ ولكنّها الأخيرة في مدرسة الإصلاح والتغيير الذي بدأها الخميني الكبير مع بدايات القرن العشرين؟

ها هو ذا يُتمُّها مع نهايات ذلك القرن المهيب والمليء بالرسائل والدلالات بوصيّته تلك.

إنّها شرعة ومنهاج لمدرسة الإسلام المحمّدي الأصيل التي تمرّدت على كلّ ما يتعارض مع نصوص القرآن الصريحة أو الفهم الإبراهيمي لكتاب الله المبين المحطّم للأصنام مهما بدا متعارفاً أو مشهوراً من جهة، وعلى ما وصفه هو في حياته بالإسلام الأميركي الذي حاول ولا يزال أن يسحب من جوهر الرسالة المحمديّة وتشريعاتها ومن الدين أيَّ دينٍ روحه الإصلاحيّة والنهضوية القائمة على التمّرد والقيام على الظلم والتعسف، وكل ما هو زيف وخداع وتضليل وزور وتزوير!

وإليكم في ما يأتي مقاطع هامة من تلك الوصيّة الرساليّة الهادفة والمؤثّرة:

يذكر الخميني الكبير في بعض مقاطع مقدمة وصيّته ما يبيّن لنا رؤيته المتميّزة تلك إذ يقول:

- «إنّ من الأمور المؤسفة التي جرت على كتاب الله ما يبعث على البكاء دماً بدلاً من الدموع، فقد اتخذ المستبدّون والطواغيت من القرآن وسيلة لإقامة الحكومات المعادية للقرآن، وفي الحقيقة فإنّ هؤلاء عملوا على إبعاد القرآن عن واقع الحياة، وقضوا بذلك على حكومة العدل الإلهي وأسسّوا للانحراف عن دين الله.

وكلّما استطال هذا البنيان الأعوج ازداد به الانحراف والاعوجاج. وإذا بالقرآن يصبح على أيدي الحكومات الجائرة والمعمّمين الخبثاء الذين يفوقون الطواغيت سوءاً، وسيلة لإقامة الجور والفساد وتبرير ظلم الظالمين والمعاندين للحق.

ومن المؤسف أن يقتصر دور القرآن الكريم - بسبب ما مضى ذكره - وبسبب المتآمرين والأصدقاء الجَهَلة على كونه كتاباً يُقرأ على المقابر وفي المآتم فحسب، ويصبح وهو النازل لجمع المسلمين والبشرية جمعاء وسيلة للتفرقة والاختلاف، بل هامشياً إلى حدّ أن يهجر من الحياة العامة. ومن ثم ليصبح من تحدث عن علاقة القرآن بالسياسة وكأنه قد ارتكب أكبر المعاصي، مع أنّ الحكومة والسياسة هي المهمة الأولى للإسلام والرسول الأعظم (ص). لا بل يصل الأمر لتصبح كلمة عالم دين سياسي مرادفة لكلمة عالم دين بلا دين!!

- «إننا يجب أن نفخراليوم بأنّ نساءنا في الجمهورية الإسلاميّة يشاركن في التدريبات العسكريّة متحرّرات من أنواع الحرمان الذي كان قد فرض عليهن من قبل نتيجة تآمر الأعداء وجهل الأصدقاء. ومن لم يستطع منهن حمل السلاح، فإنهنّ مشغولات بتقديم أسمى الخدمات في المواقع الخلفية بنحو

يفجّر الحماسة والاندفاع في قلوب أبناء الشعب، ويزلزل قلوب الأعداء والجهلة الأشد سوءاً من الأعداء ويملأها حنقاً وغضباً. . .».

- «إنّ شعبنا بل وكلّ شعوب العالم الإسلاميّ تفخر اليوم بأنّ أعداءها وحوش وعلى رأسهم أمريكا الإرهابيّة بالطبع، فهي لا تتورّع عن ارتكاب أيّة جريمة أو جناية لأجل تحقيق تسلّطها ومطامعها الدنيئة غير مفرّقة بين الصديق والعدو، تشاركها في ذلك حليفتها، الصهيونيّة العالميّة التي ترتكب أبشع الجرائم بما يندى له الجبين وتخجل الأقلام والألسنة عن كتابته أو ذكره. . .

وأيّ فخر أسمى وأجلّ من وقوف أمريكا ورغم كلّ ادعاءاتها وصخبها العسكريّ وسيطرتها على ثروات العالم من أن تقف عاجزة ذليلة أمامنا لا تعرف بمن تستعين وماذا تفعل وهي تسمع جواب الرفض من كلّ من تتوجّه إليه. . . . .»

- هنا أوصي الشعوب الشريفة المظلومة والشعب الإيراني المجيد أن يقفوا بحزم واستقامة والتزام وثبات على الصراط الإلهيّ المستقيم. . . وليعلموا أنّ تصاعد وتيرة الصخب الإعلاميّ للقوى الشيطانيّة في الغرب والشرق إنّما يشير إلى قدرة الشعوب الإلهيّة.

كما ألتمس من الشعوب الإسلاميّة بمنتهى التواضع والإلحاح، اتّباع الأئمّة الأطهار قادة البشريّة العظام والتمسّك الشديد في التزام نهجهم السياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ والعسكريّ، باذلين الغالي والنفيس في هذا السبيل. مؤكداً عدم الإصغاء للوسواسين الخنّاسين المارقين عن الحق والدين؛ وذلك لإحياء ملحمة الإسلام التاريخية، والدفاع عن المظلومين في

هذا العصر الذي هو عصر مظلوميّة العالم الإسلاميّ على يد أمريكا والاتحاد السوفياتيّ وسائر عملائهم...».

كان هذا في مقدمة الوصيّة، وأمّا في متنها الأصلي والذي اعتبره البعض بمثابة منشور التغيير والإصلاح الأخير أو بالأحرى نداء القيام الأبدي المطلوب من أجل إحداث النهضة الإنسانية الكبرى على كلّ المستويات، وفي كلّ الدروب والحقول والمدارس والفصول الدراسية ومقاعد الجامعة وحوزة الدين والدنيا على منهج وفقه «من لا دين له لا معاش له»، و«من لا دين له لا نظم له»، و«من لا شريعة له لا عقل له» والعكس صحيح. فإنّ الخميني الكبير هنا يتجلّى في معراجه الثوريّ النهضويّ الذي لا نظير له إلّا في قاموس الأنبياء والأولياء والصالحين من كلّ دين وطائفة ومذهب وعقيدة، إنه الثائر في أسواق الوطن الإسلاميّ الكبير، وفي شوارع كلّ عاصمة عربية أو إسلاميّة يمكن أن تشير إليها بوصلة الثائرين، فلنستمع إليه في بعض مقاطع منشور التغيير الأخير:

- إنّ ثورتنا الإسلاميّة المجيدة هي من الأهميّة بمكان تفوق قدرة القلم والبيان».

- إن سرّ نصرنا يعتمد على ركنين أساسيين هما: الوازع الإلهيّ والهدف السامي في إقامة الحكومة الإسلاميّة من جهة، ووحدة كلمة الجماهير في جميع أنحاء البلاد من أجل ذلك الدافع والهدف من جهة أخرى»

- إنّ مؤامرة القرن الكبرى هي النفخ في بوق مقولة أنّ الإسلام والأديان الإلهيّة الأخرى أديان رجعيّة تتعارض مع كلّ معطيات التقدّم والتمدّن، وهي بالتالي لا تهتم إلّا بالمعنويات

وتهذيب النفوس، وترفض المقامات الدنيويّة والانشغال بها، وبتعبير آخر: لا يمكنها إدارة الدول في الوقت الحاضر!

وما هذا الكلام إلّا بهدف إشاعة اليأس والقنوط من الإسلام والدين في أوساط الشعوب، وخاصة الشعب الإيرانيّ، من أجل إبقاء المستبدِّين وأعوانهم من التابعين لقوى الهيمنة قابضين على مقاليد السياسة والعمل السياسي!

- إدرأوا الشائعات الهادفة إلى إضعاف النفوس بالسعي الدؤوب للإصلاح، وتقديم العون والمساعدة بدلاً من المساهمة في تدمير ما بنيناه معاً بسواعد أبنائنا الشرفاء في أصعب الظروف المحليّة والإقليميّة والدولية التي تركها لنا العهد البائد إرثاً ثقيلاً!

- إعلموا جيداً بأنّ الشعب الإيرانيّ العظيم هو مفخرة القرن والتاريخ، وإنّني أدّعي وبكلّ جرأة أنّ الشعب الإيرانيّ اليوم بجماهيره المليونية أفضل من شعب الحجاز الذي عاصر رسول الله (ص) ومن شعب الكوفة والعراق الذي عاصر علياً أمير المؤمنين والحسين بن علي (ع)، فمسلمو الحجاز لم يطيعوا رسول الله (ص) وتخلفوا عن جبهات الحرب بذرائع مختلفة حتى وبّخهم الله تعالى بآيات من سورة التوبة وتوعّدهم بالعذاب..... أمّا أهل العراق والكوفة فلكثرة ما أساءوا إلى أمير المؤمنين (ع) وتمرّدوا عليه حتى صارت كتب الأخبار والسِيَر تضج بشكاواه منهم، كذلك موقفهم مع سيد الشهداء بين متردّد، وبين هارب من المعركة، أو قاعد عن القتال.

- في حين ترى الشعب الإيرانيّ اليوم وبكلّ فئاته يتزاحمون على تقديم التضحيات بكلّ شوق ولهفة، ويسطّرون أعظم الملاحم لا لشيء إلّا بدافع الإيمان. وهذا هو سر التوفيق والنصر؛

لذلك نحن فخورون بأننا في عصر كهذا العصر، وفي محضر شعب كهذا الشعب!

- لتعلموا أنّ الإيرانيين والعرب لا يقلّون كفاءة عن الأوروبيين والأمريكيين والسوفيات، وإنّهم إن استطاعوا تشخيص هويّتهم الخاصة بهم، وتخلّصوا من عقدة النقص والشعور بالدونية واليأس، واعتمدوا بالمقابل على أنفسهم فقط، فإنّهم قادرون على القيام بأيّ عمل وعلى صناعة ما يشاؤون، وما تمكّن غيركم من تحقيقه فإنكم قادرون على تحقيقه شرط الاتكال على الله والاعتماد على النفس والتخلّص من قيود التبعية للغير أو الاحتماء به، فلا التفرنج من قمة الرأس إلى أخمص القدمين مدعاة للفخر أو دليل على الرقيّ والتمدّن، ولا الذهاب إلى إنجلترا وفرنسا وأمريكا وموسكو مفخرة عظيمة كما يحاولون أن يصوروا لكم، ولا الذهاب إلى الحج وسائرالأماكن المقدّسة أو احترام الدين والمعنويات علامة من علامات التخلّف والرجعية كما يروّجون بين شبابنا!

- عليكم انتخاب نواب الشعب من بين الناس المنبثقين من سواد الجماهير ودون تدخّل الحكومات والبيكوات، كما أوصي علماء الدين، لا سيّما المراجع الكبار منهم، أن لا يعتزلوا المجتمع، ولا يتركوا الناس وحدهم في مواجهة المصاعب اليومية تاركين السياسة والحكم بأيدي التبعيين وسادتهم الأجانب كما فعل البعض مع الثورة الدستورية التي ضيّعنا فرصتها التاريخية، كونوا يقظين وراقبوا بحذر تحرّكات الأعداء الأجانب من المستعمرين، وما إن تشعروا بأوّل خطوة تغلغل هبّوا للمواجهة ولا تمهلوهم، فالله معكم وهو حافظكم!

- شاركوا جميعاً عمالاً وفلاحين وكَسَبة وموظفين وتجاراً في الانتخابات، فإنّ عدم مشاركة أيّ منكم والتساهل في هذا الأمر في بعض الظروف قد يكون ذنباً من أكبر الكبائر!

- ليحرص الجميع عند اختيار رئيس الجمهورية ونواب المجلس - البرلمان - على أن يكونوا ممن لمسوا حرمان المستضعفين والمجتمع ومظلوميّتهم، وممن يعتزمون تحقيق الرفاه لأبناء الشعب، وليس من أولئك التجار والإقطاعيين من الساعين للوجاهة والشهرة، المرفّهين الغارقين في الملذات والشهوات غير القادرين على إدراك مرارة الحرمان ومعاناة الجائعين والحفاة!

- لا يتوهمنّ أحد بأنّ منصب القيادة في ذاتها هدية ومقام سام له، فهو واجب ثقيل وخطير يُوكل إليه والزلّة فيه إذا كانت اتّباعاً لهوى النفس لا سمح الله فإنّها تستتبع العار الأبديّ في هذه الدنيا، ونار غضب القهار في الآخرة!

- إنتبهوا لطابور المندسّين من مختلف الفئات بمن فيهم من المتلبّسين بلباس الدين ممن يشكّلون الخطر الأكبر من الجميع، فهم قد يعيشون بين الناس أحياناً متظاهرين بالإسلام والقداسة والوطنية عشرات السنين متحيّنين الفرصة المناسبة لتنفيذ مهامهم المشبوهة!

- كونوا دعاةً للوحدة والاتحاد ونبذ العنصريّة المخالفة لتعاليم الإسلام ومدّوا أيديكم إلى إخوانكم في الإيمان في أيّ بلد كانوا، ومن أيّ عنصر كانوا، فإنّ الإسلام يُؤاخي الجميع، فعسى الله أن يمنّ علينا بهذه الأخوّة والمساواة في يوم قريب!

- وصيّتي إلى المسؤولين في وزارة الإرشاد والإعلاميين أن

انتبهوا جيداً لما يُحاك في العلن والخفاء، من أجل تشويه صورتنا، فنحن نتعرّض لهجوم إعلاميّ مكثّف من قبل جميع وسائل الإعلام المرتبطة بالقوى الكبرى؛ لأننا قطعنا يدها عن بلادنا!

- وأمّا أخيراً وأنا أمضي أواخر أيّامي، فإنّي أُوصي جميع المسلمين والمستضعفين في العالم أن لا يقعدوا على أمل أن يُتحفهم قادة بلدانهم أو المسؤولون في حكوماتهم أو القوى الأجنبية، بالاستقلال والحرية.

- إنهضوا أنتم يا مستضعفي العالم، ويا أيتها الدول الإسلاميّة، ويا أيها المسلمون أجمع، وخذوا حقوقكم بأيديكم وأسنانكم، ولا يخفكم الصخب الإعلاميّ للدول الكبرى وعملائها العبيد... أطردوا الحكّام الجناة من بلدانكم فهم يسلمون حصيلة أتعابكم إلى أعدائكم وأعداء الإسلام العزيز!

- وأخيراً وليس آخراً عودة إلى الشعب الإيراني المجيد؛ أعود فأذكّر بأنّ المشاقّ والآلام والتضحيات وبذل الأنفس وتحمّل الحرمان في هذا العالم، إنما يتناسب وعظمة الهدف وسمّوه وعلوّ مرتبته، وما نهضتم من أجله وما زلتم ماضين فيه. يعدّ أسمى وأغلى وأعلى هدف وغاية يمكن السعي من أجلها منذ بداية العالم في الأزل وحتى ما وراء هذا العالم وإلى الأبد.

- وأنا الآن إذ أستأذنكم أيّها الأخوات والأخوّة للمضيّ نحو مقرّي الأبديّ بفؤاد مستقرّ وقلبٍ مطمئن وروح متفائلة وضمير مفعم بالأمل بفضل الله، معلناً حاجتي الماسة إلى دعائكم لي بالخير سائلاً الرحمن قبول عذري عن قلّة ما قدمته، وعن قصوري وتقصيري، فإنّني آمل من أبناء الشعب قبول عذري عما بدر منّي من قصور أو تقصير، ولتمضوا قُدُماً بحزمٍ وإرادة

وتصميم، ولتعلموا أنّ رحيل خادم عنكم لن يحدث أيّ خلل في صفوف الشعب الحديدية، فإنّ هناك من الخدّام من هم أفضل وأسمى.

والله الحافظ لهذا الشعب ولجميع المظلومين في العالم.

والسلام عليكم وعلى عباد الله الصالحين

ورحمة الله وبركاته

1 جمادي الأولى 1403 هجري

روح الله الموسوي الخميني

18

ما بعد بعد الخميني: عالم ينهار، عالم ينهض

إذا كانت هذه هي سيرة العظماء من المجدّدين والمصلحين، صورة كفاح من أجل إحياء القِيَم السامية والمتعالية على حساب قِيَم العبوديّة والاستبداد والدونيّة، وهي صورة مصغّرة من التاريخ البشريّ منذ بدء الخلق حتّى يومنا هذا، بكلمة أخرى: صراع مرير ومستمر ودائم بين الحق والباطل، بين الخير والشر. إذا كانت هذه هي سيرة العظماء، فإنّ الخمينيّ الذي غادر هذه الدنيا برأس مرفوعة ترك وراءه من هم لا يزالون يسيرون على طريقه الخالدة، وهي طريق أصحاب نظريّة الفداء التي هي سر الحياة السعيدة وجوهر انتصار الفضيلة ورمز الصمود الإنساني العظيم، وبين أرباب نظرية البقاء مجرأد البقاء بأيّ ثمن والتشبّث بالأنا المتسلّطة والحاكمة، مهما كانت النتائج مدمّرة وقاتلة؛ لكنّ القدر المتيقّن هو أنّ نتائج المعركة ستكون البقاء للمُثُل العُليا!

فعلى الرغم من سيطرة وسيادة حكومة المال والجاه والسلطة على المعادلة الدوليّة، شهدنا وبأم العين كيف أنّ منهج الإصلاح

والتجديد الخمينيّ انتصر، وليس فقط في إيران، بل أيضاً في لبنان كما في فلسطين كما في العراق. وليس هذا فقط، بل إنّ منهج الباطل يتعثّر اليوم كما نراه بأمّ العين أيضاً في أكثر من مكان، بل إنّه يتعثّر في عقر داره كما تشير أخبار انهيارات حكومة المال والجاه الدولية!

قال تعالى: ﴿لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾.

وقال أيضاً: ﴿خُلِقَ الْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ صدق الله العلي العظيم

وهذا تأكيد لا جدال فيه من الله تعالى بأنّ الدنيا ليست مُلكاً لإبليس وجنوده على الدوام، بل إنها معركة كرّ وفرّ، وعلى المؤمنين والمصلحين أن لا ييأسوا من رحمة الله، فهو ناصرهم إن هم نصروه!

فإذا كان صحيحاً أنّ جماعة الشيطان من جنود حكومة المال والجاه العالمية لا تزال تُمسك ببعض مفاتيح الأرض بيدها، وتضرب بالحديد والنار هنا وهناك، إلّا أنّ المؤمنين الذين يقبضون على دينهم كالقابض على الجمر يتقدّمون في أكثر من موقع على وجه البسيطة.

أنظروا أين أصبحنا في لبنان؟، أنظروا أين أصبحنا في فلسطين؟ أنظروا أين أصبحنا في أفغانستان والعراق و؟

صدّقوني، لقد كان الواحد منا قبل قدوم هذا الرجل الإصلاحيّ المجدّد للدين يستحي أو يخجل أو يحرج من أن يصلّي أمام الجمع، بينما نحن اليوم نشهد أمّة محمّد (ص)، بل وأمة المؤمنين في العالم هي التي ترفع رأسها، فيما يخجل الآخرون من أن يشيروا إلى مدارسهم الفكرية التي كانوا أو ما زالوا ينتمون إليها، والتي أصبحت في غالبيتها في متاحف التاريخ، كما أشار الإمام الخمينيّ

في رسالته الشهيرة إلى الرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشوف، أليس كذلك؟!

صحيح أنّ شرقنا لا يزال يألم في أكثر من بقعة؛ لكنّهم هم يألمون أيضاً ويرجون من الله ما لا ترجون، نعم إنّ تباشير الفتح والفرح والسرور والنجاح الذي يلي عمليّة الولادة يمكن رؤيتها على وجوه أكثريّة الناس في بلادنا على الرغم من الأحزان المؤقّتة والمؤلمة.

إنّها لحظات صراع ربع الساعة الأخيرة بين عالم يتفتّت وينهار أمام أعيننا، وبين عالم يتحرّك وينهض شامخاً من بين الخراب والدمار، كلّ ما علينا هو أن نتسلّح بالأمل والإيمان بأن الله مع الصابرين إذا صبروا، ومع المؤمنين إذا انتصروا له.

وإذا ما أردنا أن نكون من مفاخر عصر الإصلاح والتجديد وإحياء الدين، فإنّ علينا أن نطلب الشهادة والموت حتى تُوهب لنا الحياة، تماماً كما فعل المجدّدون والمصلحون الحقيقيّون.

فالتمسّك بعقيدة الفداء والثبات عليها، في الليل كما في النهار، في أيام المصاعب وتعثّر الطرقات واشتداد الأزمات كما في أيام تحقيق الإنجازات والانتصارات، هو الذي يوفّر لنا إمكانية البقاء شامخين مرفوعي الرأس في دار الإسلام الكبرى كما في دار المشرق الحضاريّ المتعدّد بأنواع المؤمنين وأطيافهم المختلفة.

لقد ترك الخمينيّ والمصلحون من أمثاله ومن مريديه وطلابه تراثاً ثرياً وغنياً في الميدان لا بد سينتصر على إرث الباطل المشؤوم، وها هي تباشير التحوّل والانقلاب في موازين القوى العالميّة لمصلحة أمتنا أمّة الخير والإيمان، تلوح في الأفق جلية وصافية، وسوف لن تغفر لنا الأجيال القادمة إذا ما قصّرنا في المهمة الموكولة إلينا؛ إذ

مع كلّ علائم الجبروت والغرور والغطرسة التي تحاول قوى الشيطان المقهور الظهور بها في محاولة لوقف مسار الانهيار؛ لكنّ الخواء والذلّة والهوان ينخر هيكلية أنظمتها وكياناتها من الشيطان الأصغر في تل أبيب إلى الشيطان الأكبر في واشنطن!

ولم يعد هناك شك بعد انتصارات حزب الله والمقاومتين الإسلاميّة في لبنان وفلسطين، في أنّ العصر الذي ينتظرنا هو عصر الشعوب والجماهير، عصر الجماعة وعصر السواد الأعظم من الناس، وأيّ تراجع أو تخاذل يصيب النُخَب هنا أو هناك، أو تبدو ملامحه لدى البعض من أصحاب الهوى، ما هي إلّا انكسارات جزئيّة وحالات عابرة وشاذّة، سوف لن تتمكّن من حرف المسار العام للنهضة الكبرى!

إنّ الرياح القادمة من بعد عصر انتصارات المقاومة في لبنان والعراق وفلسطين، كما سترون بأمّ أعينكم، هي رياح الثورة الحقيقية هذه المرة ثورة الإنسان على ذاته، ثورة الخير على الشرّ، ثورة التغيير والإصلاح الحقيقيّة التي باتت تضمّ إلى جانبنا كلّ المؤمنين من إخواننا المسيحيّين المشرقيّين الشرفاء أيضاً، الذين هزموا بقايا الفكر الصليبيّ الفرنجيّ التي تمثلت لفترة في بعض من تبقّى من نخبه المهترئة، وها هي تنازع النفس الأخير! إنّها ثورة التغيير على الجمود، ثورة الكتل البشريّة الهادرة على النخب السلطوية المتمترسة وراء أسوار الشيطان الأصغر والأكبر والتي لن يطول بقاؤها أبداً!

والواقع أنّ ثورة الحريّة الحقيقية على الاستبداد والتي ستأخذ هذه المرة أشكالاً أكثر إنسانيّة من ذي قبل كما توحي لنا الأحداث والوقائع، لن تستطيع قوى الشيطان فرملتها هذه المرة بسهولة كما كانت تفعل من قبل، فالهدير الجارف هذه المرة سيغسل القلوب والأبصار قبل العقول والأدمغة؛ لأنّ التعدّي على الإنسان قد وصل

إلى حدٍّ لا يطاق، وأصبح يهدّد سنن الكون وقوانين استمرار الحياة برمّتها، وتأبى إرادة الله أن ينهزم الإنسان وأن تهزم علومه وإنجازاته التي علمه إيّاها في نهاية المطاف. وقد قال تعالى:

﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

صدق الله العلي العظيم، وصدق رسوله الصادق الأمين وإخوانه ممن سبقوه من الرسل أجمعين والسلام على المصلحين والمجددين من الآن إلى قيام يوم الدين.

الخاتمة

بقيّة السيف أنمى عددا وأكثر ولدا

صحيحٌ أنّ الخمينيّ، ذلك الرجل الثمانيني الذي لم يكن ليملك سوى لسان الحق الناطق وسجّادة تعبّده وعرفانه، غادر هذا العالم ولم يعد يعاكس التيار الغالب من جماعة معادلة الغَلَبة المادية من طلاب الحروب والصراعات، أو يشوّش على المرفّهين من طلاب الدعة والاستكانة عيشتهم الغارقة في الفساد والإفساد، أو يفضح أولئكَ المتلبّسين لباس الفقيه والمفسّر لعلوم الكلام والحديث من مرتزقة السلطة ووعّاظ السلاطين أو المتدثّرين بعباءة رجل الدين من القشريين أو المتقمّصين لدور الناسك والعابد، وهم إلى الدنيا الدنيئة أقرب من حبل الوريد إلى قلب وحوش الغرائزية والعيش الذليل.

صحيح أنّ هذا الرجل رحل، إلّا أنّ ما يسجّل له أنّه استطاع أن يترك وراءه عشرات إن لم يكن المئات بل الآلاف من الكوادر الواعية والمدرّبة على كلّ أنواع التمرّد والاحتجاج على العسف

والظلم والطغيان، واستعدادها للاستشهاد على طريق تغيير تلك المعادلة الدنيوية الدنيئة والباطلة!

وهي الكوادر المتعلّمة أيضاً على حبِّ الحياة الحقيقية، حياة طلب العلم والمعرفة والتطوّر والتقدّم، وكيفيّة توظيف كلّ ذلك في صناعة أجيال من أصحاب الفكر وعشاق المعرفة؛ لكنّهم في الوقت نفسه من المقاومين والمجاهدين والمناضلين والمكافحين من أجل التصدّي للمهام الصعاب والمهمات الكبرى من دون خوف أو وجل على أيّ حياة!

وكما ورد في الحديث الشريف:

«**بقية السيف أنمى ولداً وأكثر عدداً**»، فإنّ هذه البقيّة الصالحة سيكون لها دورها وأثرها الكبير الكبير في تحديد مصائر أقطارنا ومصير أمتنا، بما لم يخطر على بال عدوّ ولا صديق.

لقد استطاع روح الله الموسويّ الخمينيّ في الواقع أن يطبع المنطقة كلّها بطابعه الجهاديّ الثوريّ؛ لكن التجديدي والحيوي في آنٍ واحدٍ، وأن ينقلها بفكره الثاقب ونظرته العميقة والعابرة للمذاهب والطوائف والحدود الجغرافية بل وحتى العابرة «للأديان» من عقل القبيلة وصراع القبائل الضيق الأفق، إلى عقل الأمّة النابض بالاتحاد والوحدة والتوحّد حول قبلةٍ واحدةٍ، هي قبلة الإيمان التي تشير بوصلتها إلى الله الواحد الأحد الفرد الصمد.

لقد غيّر الخميني وجه إيران والمنطقة والعالم، وحصل التغيير ليس في شعب إيران فقط بل وفي شعوب المنطقة وشعوب الأرض كلّها أيضاً؛ إذ لم يتجرّأ من بعد كلّ ما جرى أحدٌ على اتهام المتديّنين بالرجعية، أو اعتبار الدين أفيون الشعوب، بل صار العكس تماماً هو السائد، فقد أصبح الدين ومقولة التديّن هي الطاقة المحرّكة

للنهضات الفكرية والإصلاحيّة والتغييريّة في العالم وبوصلة الثوار والمناضلين في كلّ أنحاء العالم.

وتجذّرت فكرة أنّ الله القادر دوماً هو اليوم أيضاً القادر وفي كلّ ساعة وعلى الرغم من تقدم العلم وكلّ مقولات نهاية الأيدولوجيا والتاريخ وغيرها، وعلى الرغم من مرور القرون تلو القرون، أن يقول للأشياء في الميدان العملي وعلى أرض الواقع كوني فتكون.

وهذا تماماً ما حصل بالفعل وشاهدته الدنيا كلّها بأمّ عينها في إيران وفلسطين وفي لبنان وفي العراق وأفغانستان وفي أكثر من بقعة في العالمين العربيّ والإسلاميّ، بل ها هي معادلة العالم كلّه وهي في طريقها إلى التحوّل والتغيّر وهي تسير بخطى متسارعة باتجاه صناعة معادلة جديدة عنوانها «ثمة عالم ينهار وثمة عالم ينهض» كما أسلفنا!

إنّه انهيار عالم الرأسماليّة المتوحشة المنبثقة عن عبادة المادة المحض مقابل نهوض عالم المزج بين المادة والروح، بين الشهادة والشهود على قاعدة كلّ شيء بقدر!

فها هو عالم الجمود والتكلّس والنمطيّة والجهل بقوانين الطبيعة وما ورائها، وهو ما جلب معه، حتى الآن أنواع الطغيان والقتل والدمار، يتهاوى ويتّجه بسرعة الريح في طريقه إلى الزوال، فيما يبرز من بين الأنقاض عالم جديد ينبض بالحراك والحيوية والجدال بالتي هي أحسن، والرماية بعين الله والذي سيجلب معه لا محالة كلّ أشكال السعادة والفلاح والتحول نحو الأصلح لِما تبقى من عمر البشريّة إذا ما صدقت التوقّعات والتحليلات التي بات يجمع عليها أكثر من في الأرض من أهل العقل والدين، والذين نرى كيف أنّ لسان حالهم ينطق اليوم تماماً كما بشرّت به تلك الآية الكريمة من سورة الواقعة:

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾

نعم، فها هي الأزمة المالية العالمية قد خفّضت من مستوى صدقيّة القوى الهيمنيّة العظمى، فيما هي بالمقابل رفعت من رصيد القوى المستضعفة وصدقيّتها.

وبالتالي فها هي أهداف كبار المصلحين من أعلام الأمّة ممن روّجوا لنبوءة القرآن الكريم العظيمة القاطعة بحتميّة خلافة المستضعفين لهذه الأرض ومن عليها، وفي مقدمهم الإمام المصلح والمجدّد الذي نقلنا لكم باقة صغيرة من رسائله، أصبحت أقرب إلى الواقعية منها من أيّ وقت مضى، وصدق ربنا تعالى في قوله:

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾

وكل ذلك بفضل نفاذ تلك الكلمة الإصلاحيّة والتغييريّة والتجديديّة الطيّبة في أعماق سامعيها وأثرها العميق الذي وجد طريقه مع الزمن إلى معادلات القوّة وموازينها على الأرض بعد السماء:

﴿...كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤﴾